

مكتبة نوميديا
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
رواية
نورس باشا
هاجر قويدري
طوى



هاجر قويدري: نورس باشا..


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

هاجر قويدري

نورس باشا..

رواية



Book: Nawras Basha

الكتاب: نورس باشا..

Author: Hajar kowaidry

المؤلفة: هاجر قويدري

Cover plate:

لوحة الغلاف:

First Edition 2012

الطبعة الأولى ٢٠١٢



طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE,LONDON,NW2,UNITED KINGDOM

Email: tuwa@londonÁcom

TEL: 00966505481425 - 00966556687678

التوزيع: **منشورات الجمل**

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

إلى روحه جدي ضيف الله. .

وبعده إليكم جميعا ضيوف الله



[1]

نهضت مفجوعة.. يدي لا تزال في رباطها تئن، هرعت لأفتح الباب حتىّ لا يفيق الجمع النّائم في هذا البيت المشترك، طلّت في لحافها الأبيض عاقدة العزم على الحكاية ذاتها، قالت في عجل ومن دون تحيّة:

ـ لا تزالين حائضا؟

ـ نعم!

ـ هيا إذن سريعا قبل طلوع الشمس.

راهنتُ على شرب القهوة قبل ذهابنا، غير أنّها بدت كمن لا يريد التّفريط في ثقة الظّلام.

سرت خلفها مذعورة، كانت تعبر البيوت المتناثرة ركضاً نحو الأراضي الزّراعية، باغتنا قطيع من الكلاب الهائمة على جوعها، مسكت بذراعها بعض الوقت لكنّها دفعت خوفي للوراء في قسوة مستعجل.

كانت السّماء مثلي نصف نائمة، البيوت والحقول لا تقدم تفاصيلها بسهولة، وحدها صيحات الدّيكة تعلن عن بداية لون ما سيظهر جليّاً بعد قليل، حيث ستختفي الأشباح وتذوي أمام صحوة الضوء.

عند أعواد القصب المتلاحقة في ترتيبها توقّفت.. أرخت لحافها على

كتفيها، كان ذلك القصب حدّاً يفصل بين مساحة زراعية وأخرى، اختارت لها حدّاً واضحاً؛ ثم جلست أرضاً وبدأت تحفر حفراً صغيرة تحت القصب، طلبت منّي أن أنزع سروالي الداخلي، وأضع في كل حفرة قطرة أو قطرتين من دم حيضي. . !

سقطتُ في حجرها باكية ومتوسّلة، نهرتني قائلة:

ـ انهضي يا ابنة العاهرة وافعلي ما آمرك به.

مسحتُ راحة يدي على فرجي وأخرجت ما علق بها ثم قرّبتها منها؛ دسّت يدي في تراب الحفرة الأولى بحركة سببت لي ألماً شديداً، طلبت منّي أن أعيد الكرّة من أجل الحفرة الثانية، لكن يدي كانت معكرة ببعض حبيبات التراب.

ـ هيّا أسرعي ما تزال أمامنا ستّ حفر.

ـ يدي تحمل تراباً؟

ـ وماذا أفعل لك. . هيّا امسحي يدك بأطراف ثوبك، هيّا لا وقت لدينا.

عند الحفرة الرّابعة لم تكن يدي تحمل دماً، توقعت أن لا تلاحظ ذلك وسط خيوط الصّباح الأولى، إلا أنّها كانت ثاقبة النّظر؛ فطلبت منّي أن أتوسّط الحفرة الرّابعة؛ وكأني في وضعية تبوّل، ثم أقوم بدفع رحمي إلى الأمام حتى تنزل قطرات الحيض، فعلت ذلك والدّموع تغسل وجهي؛ لو أنّها طلبت دموعي بدلا عن هذه اللعنة الحمراء. . كم كان سيكون الأمر يسيرا.

عند الحفرة السادسة داهمنا رجل من الجانب الأخر لحدود القصب؛ ابتلعت أمّي ريقها الجاف ونهضت نحوه مسرعة.

ـ ماذا تفعلان هنا؟

ـ صباح الخير.. لا شيء، ابنتي مريضة وتريد أن تقضي حاجتها، ابق بعيداً وكن شريفاً، حرام عليك عورة أختك.

تراجع الرجل إلى الخلف في استحياء، بينما شدّت أمي على أذني بقسوة وتمتمت:

ـ لا يأتيني منك غير الهّم.

خطفت قوامي من على الأرض، عدلت أثوابي في ارتجاف بعد أن مسحت بيدي على تراب الحفرة الأخيرة، قامت أمي بتغطية الحفر السبع في عجل، اتجهت نحو الرجل الذي كان هناك ينتظر أن أفرغ من تبولي!

ـ يا ولدي إنها لم تنم طوال الليل جراء ألم في يدها، قد تكون مكسورة وأنا لا أعرف جباراً[١] يداويها، لقد همت بها في الحقول من دون أن أعثر على منزل الحاج........... نسيت اسمه يا ربي.

ـ الحاج الطيب، هو قريب من هنا اتبعاني.

تلاحقت الأسئلة على أمي طوال الطريق من طرف الرجل الغريب، وهي تتفنن في مراوغة محكمة التضليل؛ حتى وصلنا إلى بيت حجري بائس.

---

(١) الجبار هو من يعالج الكسور ويجبرها.

ـ انتظراني هنا.

وقفت إلى جانب أمي، كان المكان غارقا في رائحة البهائم التي يبدو أنها الصاحي الوحيد، اقتربت مني دجاجة ونقرت خفي الموحل، نهرتها لكنها عادت مرة أخرى، كنت أفكر في زهور، لقد تركتها نائمة، لا شك أنها تبكي الآن، شعرت بدوار مباغت وأنا أنصت للقطرات المتلاحقة من كل جهة.. دمعي ودمي ودقات هذا القلب المقبوض.

ـ هيا تقدما.

دخلنا الباب بانحناء قصري، إنه بطول انكماش خائف، كأنما يتوجب على الداخل أن يقدم التحية للعتبة أولاً، تقدمت نحونا عجوز مسنة، رحبت بنا بصدق وألحت على ضرورة شرب القهوة؛ حتى يتمكن الجبار من تجهيز أدوات علاجه.

القهوة ضرورية جداً بالنسبة لي كي أفتح عيوني، أتصورني دوماً ماثلة للنوم إلى حين ترشف فنجاني الصباحي، ظل الرجل الذي باغتنا في الحقل يرمقني بنظرات خاطفة من حين لأخر، وعندما دخلت غرفة الجبار وجدته غارقاً في برنس أبيض، يمسك بسكين حاد ويقلّم حشرجة القصب في يده.

كانت يدي قد ركنت إلى سلام ما، سببه لا شك هذه الضجة التي أحدثتها أمي منذ الصباح، لكن العجوز انقض على ذراعي وقال:

ـ لابد من إعادة العظم إلى مكانه.

أدرك جيدا أن ما قامت به أمي فعل مشين، وأنني سأدفع ثمنه لاحقاً، لم أتخيل أن الدفع سيكون في الحال؛ وبهذه الطريقة الموجعة حد العظم.

وضعت أمي قطعة نقدية في يد العجوز المسنة وودعتها، لكنها لحقت بنا وهي تحمل سلة صغيرة، رتبت فيها بعض حبات بيض البط الكبيرة، قالت سينفع لشفاء عظمي، ثم وشوشت أمي في أذنها بعض الوقت، جاء رد أمي بالإيجاب، بينما كنت أجيب آلامي بالأنين المكتوم.

في طريق العودة ارتفعت درجة حرارتي، بدأت فجأة بالقيء المرير؛ لم تبدِ أمي قلقاً لذلك، كل ما همها أنها نفذت ما توعدتني به، وردمت سبع حفر مبطنة بدم حيضي؛ حتى لا أتمكن مرة أخرى من الإنجاب.

عند مدخل بيت سعّدة ودعتني قائلة:

ـ اليوم سأنام مرتاحة البال، لقد تخلصت من مشكلة.

حدقت فيها طويلاً. . تمنيت أن أصرخ في وجهها:

ـ ساحرة. . أنت ساحرة.

لكن صراخ زهور وصلني خائر القوى؛ هرعت إليها، وجدتها كما توقعت غارقة في دموعها، ضممتها إلى صدري طويلاً، إلا أن شهيقها المضبوط على دقات قلبها الصغير ظل يرفض الرحيل.

بقيت مشدودة العيون نحو العدم، أحاول أن أعيد على ذاكرتي ما جرى هذا الصباح؛ شعرت بها بعيدة. . بعيدة جداً لحظات الخوف تلك، متماهية وغير محددة، ترفض الامتثال لذاكرة مثقوبة الجيوب، كما في كل مرة، أعرف الذاكرة التي يفلسها الألم جيداً، أعرف تملص الصور والحكايات والتفاصيل المعذبة، عندما تكون داخلة لتوها إلى معتقل الذاكرة، سوف تعجن طويلاً إلى جانب الآلام القديمة، قبل أن تستقل بوجعها وتستجيب لندائي.

* * *

فتحت العقونة باب غرفتي وهي تلهث. . فهمت منها بصعوبة أن البقرة الوحيدة التي أملك ستلد، وضعتُ زهور في سلتها وحملتها معي نحو الإسطبل، كنت أحمل يدي أيضاً، أحمل وجعها وأنينها المتواصل حيث تنام حولها أعواد القصب المصطفة، يلفها الشاش الذي لطخ بياضه الطين، لم أستطيع فعل شيء، يدي ومزاجي المكسوران كانا يكبلان حرية العون لديّ، وحدها العقونة ظلت تواسي البقرة في مخاضها، عندما سقط العجل على الأرض تنفس لثواني قليلة؛ ثم قام مباشرة على قوامه الأربع، وتحسس أثداء والدته. . عاقلة الحيوانات عندما تولد واقفة، هي تدرك لا شك أن الحياة حالة وقوف.

فرحت العقونة كثيراً. . بدأت تزغرد بنصف صوتها المفقود، بينما جلست أنا أرضاً، حسدتُ البقرة على أمومتها، وسألتُ شرودي: هل توقف نسلي هذا الصباح؟ هل الحفر السبع عند حد الأرض المزروعة ستحد رحمي عن الإنجاب؟ لماذا فعلت أمي ذلك؟

بكيت طويلاً أمام البقرة ومولودها الجديد، اقتربت مني العقونة وهي تواسيني صراخاً؛ حمدت الله على أنها لا تريد تفسيراً بقدر ما تحاول فعلا مواساتي.

بعد أيام نزعت الرباط الذي ثبتته طبقات الطين وأعواد القصب المصطفة في غلّ على طول ذراعي، بدا مزرقاً ونحيفاً جداً، لا يزال الألم قاسياً لكنني ما عدت أحتمل، ربما بعض الآلام لا ينفع معها ضماد، لابد أن تترك للريح كي تشفى.

وحدي مجدداً للمرة الثالثة، لقد عاد إلى زوجته وطلقني قبل ثلاثة أيام

من حكاية الحفر السبع، ربما ذلك ما جعل أمي تتحامل على زيجاتي الثلاث وأطفالي الثلاث، وتسارع في لجم رحمي عن الإنجاب ولو سحراً.

لا يغيظني ذلك.. سيكون أقل الرجال سكنى بالذاكرة، ليس يجمعني به شيء؛ طفلي الأخير منه توفي بعد أسبوعين من مولده، ما تبقى منه هو هذا الاعوجاج في مرفقي بسبب ضربه المبرح لي يوم طلاقي.

لست أنسى ما حدث ذلك اليوم، عندما اقتحم خلوتنا ثلاثة رجال أشداء، كانوا إخوة زوجته الأولى، طلبوا منه تطليقي في الحال، ومرافقتهم إلى مدينته حيث تنتظره زوجته الأولى وأطفالها الست، كان جباناً أمامهم وهم يركلونه بأرجلهم ويبصقون على وجهه، ظلوا طول الوقت ينعتونه بالسافل والحقير وناكر الخير، وحين اشتد الصراخ في غرفتي، سارع أبناء سعدة إلى إحضار خالي العبزوزي أين تمّ الطلاق في حضرته وحسرتي، غير أن طليقي ناكر الخير كما وصفوه تحجج في طريق عودته بنسيان أغراض هامة تخص عمله، باغتني على حين حسرة بضرب مبرح لست أنساه، ربما هي طريقته في وداعي، وربما حاول ترجمة حب ليس يفهم نهايته الباهتة؛ فكُسرت ذراعي وهو يرمي بي في أركان الغرفة كما المجنون، حاول العبزوزي إنقاذي من قبضة حبه المتوحشة، لكن ما كان لعجوز أن يتمكن من لجم غضب أخير.. ارتميت بعد رحيله المؤكد في حجره.. دمعت عيناه لحالي، مسح على شعري بعطف، العقونة أيضاً ذرفت دموعاً لن أنساها.. يحدث أن يبكي الآخرون بدلاً عنك، فتشعر بالقوة وتجمع قوامك المتناثر، وتعد قهوتك كما تشتهي وتنسى ما حدث.

لم يزرْني العبزوزي منذ تلك الحادثة، كم كان يحب قهوتي، يرتشفها

على مهل، ليس ينسى مطلقاً أن يوصي صديقه المزابي[١] بجلبها لي خضراء حيث أحمصها على الجمر وأطحنها بصبر في المهراز[٢] النحاسي، الذي أتيت به من بيت زوجي الأول الباشا آغا حمدان خلسة عن عيون زوجته زينب.

* * *

أرغب طويلا في الاستحمام، في إبعاد هذا الطين والقصب عن جسدي.. أملك بقايا صابون بائس مصنوع من الأمروج[٣].. لا شيء عندي لا ماء ورد ولا عطر ولا غسول يجيد صنعه عثمان بخلط صفار البيض والعسل وبعض قطرات زيت الزيتون، الماء كافٍ أحيانا.. أبدت العقونة ضجرها من كمية الماء التي جلبتها صبراً من البئر، قال بريق عيونها:

ـ لِمَ كل هذا؟

أشعلت النافخ[٤] الكبير أيضا، تركت القدر يغلي من دون أن أستعمل ماءه، ضروري أن تمتلئ الغرفة بالبخار، بخار الماء طهارة رائعة، أخاله كما الغيوم العالية، كنت أريد أن أدس وجهي فيه حتى أختفي من كل الذي حولي.

لما قدمت لي العقونة المنشفة رميت على وجهها بعض قطرات الماء؛ ثم دفعت بها بالكامل داخل الصهريج الذي أوهمت الحداد أنني

---

(١) من بني ميزاب، يعرفون منذ القدم بالتجارة.
(٢) وعاء نحاسي للهرس.
(٣) هي بقايا زيت الزيتون المعصور.. لونها بنفسجي كان يصنع منها صابون تقليدي.
(٤) وعاء فخاري يوضع فيه الفحم ويستعمل للطهو والتسخين.

سأستعمله لتشرب فيه البهائم، آه.. تعلمت أموراً كثيرة من زينب وورطتني عاداتها الباذخة التي ما صرت أقوى عليها وسط هذه القحالة.

كادت العقونة أن تختفي حياءً وهي تحاول تغطية جسدها النحيل بأطرافها عن عيوني، ما كنت لأستحي منها؛ بقيت عارية وأنا أغسل شعرها ثم جسدها بالليفة الطبيعية التي نغرسها كل سنة.

لما أنهينا بدت وجنتاها ورديتين مثل زهر بري صغير لست تنتبه لفتنته الضارية وأنت هارب بدهشتك إلى فوق، بدت جميلة وناطقة؛ لكن صوت سعّدة وصلني مبحوحاً مرات عديدة وهي تنادي:

ـ يا العقونة.. يا العقونة والله لو أمسكك سـ....

نبهتها لذلك النداء المتوعد فراحت تركض إليها.

تخلصت من المياه الممزوجة بالصابون والطين؛ تخلصت أيضا من العرق الممزوج بالحكايات القديمة التي ظل جسدي ينصت إليها، نمت تلك الليلة من دونها، كما صغيرتي زهور، متحررة، هادئة ونظيفة من كل بقايا الذكريات السيئة، لم يعكر مزاجي سوى شوقي لإبراهيم، كم أشتاقه وأنا نائمة، أحيانا أشعر به إلى جانبي وعليّ أن أتحسس الغطاء وأغطيه، وعندما أفيق كنت أجد زهور إلى جانبي من دون غطاء وليس هو، الابن البكر وسوسة مستمرة، تتحرك في أقصى الخاطر، تقتات من ذكريات الحب الأول، تشرب من ارتواء النضج الأول، كل أول في حياتنا ثابت، بينما الثاني يستند على الثالث والرابع.. ثم يضيع بينهما.

* * *

شهر آخر ينطفئ بهدوء، نهاية العدّة لا يزال في حسابها شهران آخران،

في الحقيقة لا شيء يدعو للقلق، كل اتجاهاتي محصورة بين الغرفة والإسطبل، ولا عمل لدي سوى رعاية البقرة والقيام ببعض أشغال البيت في تكرار مقيت، العقونة صارت تنام عندي بعد رحيل زوجي الأخير.

أشم رائحة عكك معطر يأتيني من مطبخ سعدة، أريد أن أصنع مثله لكني أخاف على ذخيرتي، أخاف أن تنتهي، أخاف أن يهتز وقاري في هذا البيت، سعّدة لا تحبني، ولا زوجات أبنائها الثلاث، أعرف ذلك، طوال عمري لا حظ لي مع النساء.

أنا على الدوام في عيون النساء سمراء لعوب يمكنها أن تغوي أيّا كان، هن لا يدركن أنني باهتة في هذا الأمر، ها هي حبات الفرح تنسل من عقد عمري، وما عاد يهمني جمعها من جديد، وشدّها بشهقة حياة إلى خيط الروح.

انتهى موسم الحصاد منذ أيام، أحضرت لي أمي بعض القمح والشعير، تخبرني من جديد وكما في كل موسم:

خبز المحصول الجديد يؤكل برفقة الأماني التي سوف تحقق.

ولا أتمنى شيئا، لا تتحرك خواطر الأماني داخلي، ربما لا شيء يتحقق في الخارج، لابد للحقل أن يحلم قبلنا يا أمي حتى تستجاب الأماني.

أنتظر عاشوراء بفارغ الصبر، عاشوراء تعني الفرح في داخلي لأنها ستأتي محملة بكل ما سيقهر العوز، سأكون فيها أميرة هذا البيت، أين ستصل البغال المحملة بالقمح والشعير والقهوة والسكر وكل أنواع الحبوب الجافة والتمور والشموع؛ أيضا كيس المال الذي لا يقل عن

خمسين موزونة ذهبية، إنه العطاء السنوي الذي يجزله لي الباشا آغا فاروق أخو المرحوم زوجي الأول.

لم أعتبر ذلك يوماً صدقة.. لقد خرجت من بيتهم دون ميراث، ولم أحمل غير أثوابي.

ـ عليك أن تحضري أحداً من أهلك يشهد على قيمة ميراثك، ستأخذينه معك مادمت قررت العودة إلى أهلك.

ـ لا لن آخذ شيئا.. ليبقى كاملاً لولدي إبراهيم.

حدق الباشا آغا فاروق لحظتها طويلاً في وجهي.. ثم قال:

ـ لن يصيبك العوز ما دمت حياً.

العوز يتسلل يا فاروق، وعاشوراء بعيدة، السبب في كل هذا جشع زوجي الأخير الذي نهب من مالي الكثير، لا أعرف كيف تحملته طوال هذا الوقت.. صبري لم يكن عليه، بل على عيون النساء اللواتي يخفن مني كلما كنت بلا رجل، المشكلة الآن أنني بلا قهوة، ويستحيل البقاء من دونها يوماً واحداً.

لست أستطيع الخروج من البيت بسبب العدّة، حتى أذهب إلى العبزوزي أو إلى بيت أمي وأحضر قهوتي خضراء كما يشتهي خاطري، العقونة ليست تتمكن من حل الأمر، يمكن الاتكال عليها في جميع الأشغال عدا أن تكون رسولاً ناطقاً.

يمكنني الخروج إلى بهو البيت وأن أطلب من أحد أولاد سعّدة إحضار العبزوزي، أو حتى تدبر أمر رطل من القهوة، لكن ذلك بعد حكاية الطلاق الأخيرة لقمة صائغة كي تبدأ نساء البيت في أكل لحمي من جديد.

عندما تركني زوجي الثاني تحالف نسوة البيت كلهن، وتركن أزواجهن أسبوعاً كاملاً احتجاجاً على وجودي في البيت من دون رجل.

قالت الأولى: لا يمكن العيش مع الغاوية.

ردت الثانية: عليها أن تترك البيت كي نعود إلى أزواجنا.

بالغت الثالثة: لقد رأيتها تغمز لزوجي كي تجره إلى غرفتها، إنها لا تخاف الله.

وحدها سعّدة كانت إلى جانبي، في الحقيقة هي إلى جانب مصلحتها، أنا أدفع لها كل سنة مقدار ست موزونات ذهبية، ورغم ذلك رضخت في النهاية لأصوات زوجات أبنائها، وإلى تذمر أبنائها وقررت طردي، فما كان على العبزوزي سوى تزويجي للمرة الثالثة، لا أعرف لِمَ لا ينتهي معي عذاب هذا البيت البائس، لو أني أبيع ذهبي.. سيكفي ذلك لشراء بيت مستقل.

ـ أين ستجدين بيتاً؟؟ لا أحد يبيع بيته في مدينتنا؛ حتى الذين يرحلون يوصدون أبوابهم ويتركونها للأشباح ولا يبيعونها، البيوت عندنا مقدسة وتعني الكثير، وكل العار للذي يجرؤ على التفريط فيها حتى ولو كانت تساوي كنوز الدنيا.

يردد العبزوزي هذا كلما أعلنت تذمري، لكني هذه المرّة سأتحالف مع راحتي، لن أتزوج قط كي تخرس الألسنة من حولي.. يكفيني ما حدث، أحتاج أن أبقى بمفردي طويلاً كي أخيط كل هذه الجروح الغائرة.

صبرت على القهوة أربعة أيام متتالية، بقيت معصبة الرأس طوال الوقت

بسبب الصداع الذي ورطني فيه غيابها، في اليوم الخامس دقت سعّدة باب غرفتي في لهاث أفزعني، هي لا تدق بابي إلا إذا كان في الأمر ما ينفعها، وعاشوراء بعيدة!

ـ ينتظرك رجال الباشا آغا فاروق في الخارج.

أسدلت وشاحي على رأسي وخرجت، لاحظت أن الرسول لا يحمل مؤونة ولا أكياسا، كان برفقة ثلاثة بغال يحملون سروجهم الفارغة في ضجر.

ـ عليك الذهاب معنا في الحال إلى البيت الكبير في الدَاميات.

ـ لا يمكنني ذلك، أنا في أشهر عدتي، هل حدث مكروه ما؟

ـ إنه أمر الباشا آغا فاروق وعليك مرافقتي.

ـ إذن اذهب إلى بيت خالي العبزوزي وأحضره، لن أخرج معك من دونه.

ـ نعم.. نعم في الحال.

ربط الرسول بغاله في شجرة قريبة وانطلق نحو بيت العبزوزي في الربوة المقابلة، بينما قابلتني الظنون من كل جهة.

ـ ماذا يريد فاروق؟

أكاد أجزم أن مكروها ما حدث، هناك عضة واضحة في وجه الرسول، دخلت غرفتي بسرعة تاركة عيونَ سعّدة والنسوةَ في حيرتهن، بدأت بتحضير نفسي، يهمني كما في كل مرة أن أكون جميلة أمام زينب، لقد فضلني الباشا آغا حمدان يوما ما عليها، عليها أن تتأكد دوما أنني الأجمل من عينيها السماويتين وبشرتها الوردية.

ارتديت أجمل ما عندي، وضعت كحلاً، رتبت ملابس زهور ومشطت لها شعرها، لم أكن قد أنهيت عندما عاودت سعّدة دقّ بابي بذات الرجفة.

ـ يعاود الرسول السؤال عنك وهو برفقة العبزوزي، خير إن شاء الله؟

ـ سأذهب إلى الدَاميات. . الباشا آغا فاروق يطلب في رؤيتي ولا أعلم السبب.

سلّمت عليها وعلى النسوة اللواتي كن خلفها ثم خرجت مسرعة، بدا العبزوزي على غير لونه، حمل عني زهور وأنا أتأهب للصعود على ظهر البغل، أحب وقع حوافر البغال وهذا العلو من فوقها، منذ زمن لم أركب بغلاً، ثبتت زهور على ظهري في حزام قماشي متين، مشينا لبعض الدقائق ثم توقف العبزوزي قائلا:

ـ صحيح يا ابنتي أنني أنوب عن أهلك، لطالما اعتبرتك ابنة حقيقية لي، لكن أعتقد أن مجيء والدتك معنا هذه المرّة سيكون أفضل.

اقشعر بدني لحديثه، ثم صرخت في وجهه:

ـ أخبرني ماذا هناك، أخبرني في الحال؟

لاح صمت طويل بيننا قبل أن يفلت العبزوزي من حدة عيوني السوداء:

ـ لا أعرف، ولكن من المؤكد أن الباشا آغا فاروق يحتاجك لأمر هام.

ترسخ أمر جديد في رأسي، بدا وكأنه الحقيقة الأكيدة، لقد علم الباشا آغا فاروق بأمر طلاقي، ربما سيؤنبني أو سيحتجزني عنده في الدَاميات إلى جانب ولدي إبراهيم، سيقول لي:

ـ لقد أخذت نصيبك بعد المرحوم في زواجين، حان الوقت كي تتفرغي للعناية بولدك إبراهيم بيننا.

بدأت أرتب الكلمات التي سأتحجج بها، سأقول له لا يمكنني ترك زهور وأمي، زينب أيضا لا تطيقني، سأبكي قليلا ثم أطلب منه أن يتدبر لي بيتا في عزيز إلى جانب أمي ولن أتزوج مطلقاً.

هذا حل جميل سيريحني أكثر، قد يستطيع بنفوذه أن يحقق لي ذلك، لن تقف في وجهه أعراف باهتة تجعل البيوت لا تباع ولا تشترى في مدينتي، ربما سيقوم ببناء بيت لي بعدما فشلت في ذلك، لا أعرف.. ربما سيكون شجاعاً هذه المرّة ويعرض علي الزواج، لقد أسّر لي خادمه عثمان بذلك ذات مرّة.. قال لي:

ـ لولا خوف الباشا آغا فاروق من زينب لكان عرض عليك الزواج.

هل سيفعل ذلك؟ سأقبل عرضه كناية في زينب، ستموت على يدي لو حدث ذلك، سوف تخرج عيناها وتصاب بشهقة كبيرة تودع على إثرها الحياة، لطالما رغبت في رؤيتها تنتهي غيظاً مني.

دخل العبزوزي بيت والدتي وعاد بها في الحال، توقعت أن يسمح لها زوجها بذلك، كلهم طماعون والباشا آغا لا يخرج أحد من بيته فارغ اليدين، سيجزي كثير العطايا لأمي التي لم يرها منذ زمن.

مشينا بسرعة تحت أشعة الشمس الحارقة في عز الصيف، ظل الرسول يردد:

ـ لابد أن نصل قبل العصر.

يرد العبزوزي:

ـ سنصل لا تقلق، لا يزال الضحى في أوله.

عاود هذا القلق شدي إلى احتمالات أخرى، أمي لا تتكلم ونظراتها نحوي مكسورة، كأنما لا تريد أن تتلقى عيوننا في خبط لفتات يحددها المسير وانكسار خطوات البغال، كما أنها لم تسألني عن حالي.

ـ كنت أود أن أرسل إليك أحد ما يأتيني ببعض القهوة، تصوري لم أشرب القهوة منذ أيام.

ـ وقت القهوة يعني؟

قالت ذلك في وشوشة خفية إلا أنها وصلتني، هم يعرفون سبب ذهابنا لا محالة، ولكنه وقت القهوة، لقد نالت مني الشمس وتحدد الصداع في شق واحد من رأسي، شددت البغل من لجامه في غضب وصرخت:

ـ أريد أن أستريح قليلاً في الظل، لا يمكنني متابعة المسير، رأسي يكاد ينفجر.

ـ أصبري قليلا يا بنتي، سوف تستريحين حالما نصل البيت الكبير.

رددت ذلك أمي في هدوء كي تنال من عنادي التي تعرف شدّة صلابته، لكنني تماديت في طلبي، ونزلت من على البغل.

ـ من غير المعقول كل هذا العذاب. . سأستريح قليلا عند ظل هذه الشجرة.

وجدت لي مكانا تحت سدرة شائكة[1] تؤمّن قليل الظل، سقطت بجسدي المنهك على الأرض، ظل ثلاثتهم على ظهور بغالهم يحدقون بي، لكنني لم آبه لأحد؛ فلينتظر هذا الفاروق.

لم أكن لأغفو ولكنني كنت بالفعل عكرة المزاج بسبب القهوة والصداع، نامت زهور أمامي بمجرد أن لامس الظل جسدها الصغير، بسببها بقيت تحت الشجرة حوالي ساعة وتزيد.

ـ لا يمكن البقاء هنا أكثر من ذلك، لابد أن نصل سريعاً.

بدى الرسول وكأنه سيد قلق سيصّب كامل غضبه في وجهي بعد قليل، كنت سأقوم كي أذكره بحدوده لولا العبزوزي الذي قال:

ـ يا ابنتي. . بجاه النبي انهضي كي نتابع الطريق، قد يحتاجنا الباشا آغا لأمر هام، من العيب أن نتأخر عنه.

سحبت أمي الصغيرة من نعاسها وحملتها معها على ظهر بغلها، بينما واصلت تذمري طوال الطريق، كان العصر قد لاح حسب معرفة العبزوزي عندما وصلنا مدخل الطيطري، انطلق الرسول وبغله كما غزال تفرّ من صيادها، لا افهم لِمَ كان العصر هو ذلك الصياد الذي لابد علينا أن نصل قبله، وعندما اقتربنا من السكنات تجمع حولنا الصغار حيث صرخ أحدهم فجأة.

---

(١) شجرة شوكية جذعها قريب من الأرض.

ـ لقد ذهبوا به إلى المقبرة.

رمقني الجميع بنظرة لوم حارقة لأنني كنت السبب في تأخرهم، طار الرسول مسرعاً كما البرق نحو موكب الجنازة الذي ظهر لنا مهيباً من بعيد عند مدخل المقبرة، ارتجفت من جوفي وباغتني شلل بارد عندما سمعت أمي تصرخ:

ـ يا وليدي يا إبراهيم.. ما عشت ما شفت دنيا.

لعله البغل فهم الأمر بدلاً عني؛ فارتعد مسرعاً، مسكت لجامه بقوة.. تخبطت في داخلي صهوته، انتهينا في ثوان عند مدخل المقبرة، كان الإمام قد بدأ صلاته التي لا ركوع فيها ولا سجود، عندما تخطيت جمع المشيعين وارتميت عند أكفانه، لم أكن بعد قد تيقنت من أنه هو ولدي إبراهيم ابن الثماني سنوات، توقعت أن الأمر كله ضربة شمس مجنونة أخذتني حيث الهذيان والخيالات المفترسة، سحبت القماش الأبيض في ارتعاش.. وإذا بي أتأكد أنه هو إبراهيم، ولدي الصغير الذي لم أره منذ سنة كاملة.

سحبته كلية من نعشه وضممته إلى صدري، كان صراخي كما صهوة البغل الذي أعارني شجاعته منذ قليل.

ـ أه.. يا ربي.. أه يا ظالم.

تسمّر الجميع من حولي، توقف الإمام عن صلاته، سمعت بكاءً جماعياً هزّ أركان المقبرة، كنت بينهم كما ريح ترتعد وتتلعثم جراء محاولات خائبة للقبض على جوانب الأمكنة، لا ثقل لجسدي، وربما لا جسد لي، فقط ظل يتمايل وعويل ليس يجد صوته بعد، كان يتوجب

عليّ أن أبتلع شيئاً ما، شيئا صلبا وعسيرا يتكدس في حنجرتي المختنقة، قبل أن أتفطن إلى وجود هذا الجمع من حولي، أعدت إبراهيم إلى نعشه وبدأت في طرد الجميع.

ـ هيا اذهبوا.. لن يدفن إبراهيم.. سوف ينام معي هذه الليلة فقط.. هيا.. اذهبوا.. تعالوا غداً سوف أسمح بدفنه غداً.. نعم غداً.. سوف ينام معي الليلة..

حملت أحجاراً من على الأرض، تهيأ لي أنني أنزعها من على الحنجرة المخنوقة، رميت بها على الجمع المبهوت الذي لم يجرؤعلى عناد حرقة أم ظلت غائبة، ثم تقدم فاروق نحوي ووجهه مغسول بالدموع.

ـ استغفري الله.. هذا حكم العالي.

ـ لا.. لا اذهبوا.. لا.. لا.

ضربت الرجال الذين حاولوا تكبيلي، وفجأة تمكنت من الإفلات منهم، هرعت نحو حفرة القبر التي يوجد قربها نعش ولدي، دخلت فيها بالكامل.. تمددت في داخلها وبدأت بتنزيل التراب على وجهي في حركات مجنونة.

ـ نعم.. سأدفن بدلاً عنه.. نعم واصلوا صلاتكم.. سأدفن أنا خذوه إلى البيت، خذوه إلى زينب ستعتني به وتربيه كما الملوك، إبراهيم ولدي سيكون كبيركم.. سيصير سيد الجميع.. خذوه.. وادفنوني بدلاً عنه.

ربما كان الموت بالفعل داخل تلك الحفرة، لأنني ما عدت أذكر ما

الذي حدث بعدها، حين أفقت كان الوقت ليلا والغرفة باردة إلا من شمعة، فتحت عينيّ بصعوبة وأنا أحاول ترتيب الوعي، أين أنا؟ هل هذه غرفتي في بيت سعّدة؟ تصورت ذلك فعلا واستدرت على الجنب الأيسر، لكنها ليست غرفتي؟ تحملتني قوامي للحظات بعدها نزلت أرضاً في انهيار كامل، لست أقوى على ضبط الأمور والأشكال من حولي، استندت على الحائط.. وفتحت باب الغرفة أين عرفت أنني في البيت الكبير، وأنه إبراهيم قد دفن هذا العصر.

- إبراهيم.. إبراهيم.. أحضروا لي إبراهيم.

قلت ذلك في تمتمة كانت هي كل المتبقي من صوتي المبحوح، التفت حولي أمي وزينب وفاروق، حملني فاروق بعد أن سقطت أرضاً مرة أخرى، أيتها الأرض نقطة الوصول الأخيرة، ها هو إبراهيم ينام الليلة في صدرك، وصدري مفتوح للوجع والبكاء.

تواصل الإغماء لياليَ متتالية؛ حتى فهمت أخيراً أنني فقدت ولدي الذي وقع على رأسه من فوق فرس جموح.

[2]

لست سوى قطعة عذاب، شهقة لا تعرف كيف تخنق طولها، كلما قلت أنها قطرة العذاب الأخيرة وسيفيض العمر بعدها، أتفطن أن الفائض يتابع رغوته وسيلانه ويبلل كل الروح. . عندما تتبلل الروح تصير كما الريشة التي لن تحلق بعد ذلك أبدا.

لم أعد أصرخ ولا أبكي. . الصمت صراخ رحب وصبورعلى كل الخيالات التي كانت تحط على كتفي، تخيفني. . تجعلني صقيعاً مجنوناً يتحرك داخل الفؤاد كما القطع.

تقطّع الحزن في حناجرهم، عاد الجميع إلى أشغاله، عادت أمي إلى بيتها برفقة زهور، كذلك فعل العبزوزي، بدأت أجمع الحزن من كل العيون التي حولي وأدخله فوادي، انتهت العزاءات الساخنة وتلاشى الوقع الأول عن وجوه البيت الكبير، كل ما تبقى رأفة تحط على رأسي وتطير كلما التقيت وجهاً يسارع في تذكير فلتاته باحترام حزني العميق، ثم يبتلع ضحكته النازلة بأفق حياة مستمرة، كنت أغتاظ وأحتج لتصرفهم الذي لا يأبه بحالي، غير أني في النهاية فهمت أن الفقد يعنيني أنا. . سيفترسني وحدي لوقت أطول، وأن الحزن ليس يحتاج يد العون.

ظلت زينب قريبة مني طوال الوقت، تلاشت عجرفتها وأصبحت كما

أخت تحنو طويلاً وتسهر على راحتي، نال مني المرض بعد ذلك. . بدوت نحيفة بشكل مريب، أشكو صداعاً فاحماً ليس يتركني وحزني، حاولت زينب مرات عديدة أن تقدم لي قهوة ثقيلة كما كنت أشتهي، غير أني ما عدت أتوقها، لقد فكرت في القهوة عندما كان ولدي في أكفانه ينتظرني كي ألقي نظرتي الأخيرة عليه.

ـ هذا وقت القهوة يعني؟

تنهشني تلك الوشوشة التي رددتها أمي في طريق الحزن، أتخبط في هذا الذي جاء بعد ذلك بلون القهوة، أتحدث للفناجين الفارغة عن الذي امتلأ، لابد أن أقاطع القهوة طوال عمري، لكن ليس يكفي، ليس يكفي، أريد أن أعاقب نفسي بقسوة، لم أكن أملك قلباً، لم تكن لديّ كبد تستشعر أمومتها وتسمع حنينها؟ لماذا رحلت وتركت إبراهيم؟ لمَ لم أبق هنا إلى جانبه، ماذا كان يهم تآمر زينب عليّ أمام عيون إبراهيم وبراءته، كم كان يحبه والده، ربما هو الوحيد المسؤول عن هذا الشرخ المبكر بيني وبين ولدي. . كان ينام عنده، يقوم ليلاً ويهدهده وقوفاً، يلعب معه حد التعب، يطعمه ويهتم بكل تفاصيله الصغيرة، كان كل همي أن أكون أميرة. . أن أصير بأناقة زينب، بتكلف زينب، بعطر زينب، بغنج زينب، لم أهتم به كما أم صالحة، لم أتواصل معه جيداً، وعندما قررت العودة إلى عزيز قال لي فاروق سوف تعودين إلى أهلك بشرط أن تتركي إبراهيم هنا يكبر في ربوع البيت الكبير، لا ولد لأخي حمدان غيره ولن أسمح أن يكبر ابن أخي في مكان غير بيت والده، لم أمانع ولم أعترض.

ماذا أفعل بحالي الآن؟ كيف يمكن أن أعاقب نفسي حتى أهدأ وتصير الريشة بثقل التراب، شعرت تلك الليلة التي قررت فيها العقاب برغبة

ملحة في النوم، بعض النوم يجيد فعل النسيان، ونسيت أمر العقاب لأيام عديدة بدأت أستعيد فيها سحنتي الضائعة، لكن إبراهيم ووالده زاراني في المنام، كان حمدان يهدد إبراهيم وقوفاً كما كان يفعل دوماً ثم التفت إليّ وقال:

ـ هو معي الآن، نحن بخير من دونك.

عاودتني فكرة العقاب وقررت الذهاب في الصباح الباكر إلى القلتة[١] الغربية.. سوف أموت هنا عند المياه، أليست تعني المياه في ديننا الطهارة، فلتكن طهارتي من آثامي هنا، توغلت داخلها، كانت المياه باردة، الخريف قاس وغادر أيضا، وعندما تراخى جسدي بالكامل وغاب إحساس البرودة لاحت على عينيّ زهور؛ تشكل وعدا جديدا في صدري، سوف أعتني بها.. سوف أضمها إلى صدري طويلاً وأهدهدها وقوفاً.

في الغد أخبرت فاروق أنني أريد العودة إلى عزيز، لم يأخذ كلامي محل جد، كنت لا أزال بالنسبة له هاذية ومريضة، أرسل في إحضار زهور كي يكف شوقي، لكنني كنت أريد الذهاب فعلا، جمعت أغراضي وباغته مرة أخرى عند الصباح الباكر.

ـ سأرحل.. لن أبقى هنا.

ـ ماذا ستفعلين في عزيز؟ ابنتك وها هي في حضنك.

ـ لست أطيق المكان، كل شيء هنا يتحول في خاطري إلى ذكرى دامعة.

---

(١) بحيرة صغيرة بالعامية.

ـ يا ضاوية أنت مريضة وتحتاجين إلى رعاية.

ـ سترعاني العقونة.

أشتاق إليها.. أشتاق وجهها المدهش وهي تحاول جمع الفهم بعينيها بعد أن خانتها باقي الحواس، هي تعتني الآن بالبقرة وبعجلها الصغير، لاشك أن نسوة البيت يستنزفن طاقتها في أشغال لا تنتهي، وهي بئر من الصبر، الذين لا يتكلمون يصبرون أكثر.

تيقّن الباشا آغا فاروق أخيراً أنني عنيدة وسوف أذهب ذات يوم من تلقاء نفسي دون حتى أن يعلم بذلك.. فطلب لقائي.

ـ يبدو أنه لا فائدة.. لا تزالين تصرين على الرحيل.

ـ نعم.. إذا لم أبق هنا في حياة إبراهيم فهل سأبقى في ضياعه.

ـ سأحميك هنا، ستعيشين بيننا معززة مكرمة.

ساد صمت طويل بيننا، ظل فاروق يبرم شاربه الطويل في تكرار متردد، ربما كان يطمح من شواربه دفعاً ما ليقول أمراً مهماً، فجأة كسر كل التخمينات الهاربة من رأسي، إذ ما عدت تلك الفطنة التي تلقفها من العيون قبل الألسنة، لقد قلّم الوجع كثير المهارات.

ـ هل تقبلينني زوجاً؟

طوال الفترة الماضية كنت مهيأة لعرض كهذا، لقد اخبرني خادمه عثمان بهذه الرغبة القديمة مرات عديدة، لكن بعد محنة كالتي أقبع فيها الآن أفضل الرحيل من هذا البيت الملعون، أفضل نسيان كل حكايات الباشآغات وكل همومهم، أريد العودة إلى غرفتي وإلى العقونة، هي الوحيدة التي لا يصير الكلام معها إدراكاً وسؤالاً وجواباً.

ـ لا . .

لم أقل غيرها في قسوة حاقد.

ـ إذن ستأخذين ميراثك كاملاً قبل رحيلك.

أخبرتني زينب أن العملية ستستغرق وقتاً، لأن الباشا آغا حمدان كان كثير المال، لا أعرف كيف خطر ببالي أن أسألها إن كان يملك بيوت أخرى غير هذا البيت الكبير.

ـ نعم إنه يملك منزلاً في الدزاير . . لقد ذهبت إلى هناك مرات عديدة، تذكرين عندما كان ينتقل إلى هناك ويأخذني معه، كنا نبقى لشهور كي يتمكن من متابعة تجارته.

ـ أذكر . . فعل ذلك مرة واحدة فقط، بقيتِ معه ثلاث أشهر لأنك تظاهرتِ بالمرض، لقد أخبرني بكل حيلك الماكرة.

تضحك زينب طويلاً قبل أن تتنهد بعمق:

ـ أعدتني إلى أيام العراك . . ألا تزالين تذكرين؟ يا غاوية انسي قليلاً انسي.

لكني ألححت بالسؤال من جديد:

ـ ألا يملك بيتاً في عزيز مثلاً؟ ما عدت أطيق تلك الغرفة البائسة عند سعّدة.

ـ تريدين أن تقنعيني أنك تزوجت مرتين فقط كي لا تنهش لحمك نسوة ذلك البيت، وأنك لم تغوي أحدهم، أنت يا غاوية.

لا بأس لي بصورة واحدة متساوية في عيون الجميع، لكنها لا تشبهني

البتة، الباشا آغا حمدان كان حب الصبا الوحيد، ولم أحاول إغواء أحد بعده.

ـ أنت أيضا شابة وجميلة، فهل من غواية جديدة؟

ـ لا لا يا بدوية. . لست مثلك ترضى بأي رجل، حتى ولو حاولت الغواية. . لا أحد من الرجال سيجد نفسه كفؤاً لذلك.

هكذا هي حكايتنا القديمة، حكاية البدوية الساذجة والمتحضرة القادمة من الدزاير، لكني الآن أعقل بسبب ما سقط على رأسي، ولن أدخل معها في مشاحنة عقيمة لم نتمكن من الفصل فيها قبل سنوات.

* * *

ستة أشهر مرّت منذ رحيل إبراهيم، قبره مغطى بالثلج، بقيت بقربه طويلاً، حاولت أن أبعد ركام الثلج الذي تكّوم فوق قبره، خفت عليه من البرد، لا يزال يرمقني بذات العينين الشاردتين في كل مرة، الموجع أنها نظرة باهتة. . ضائعة كأنها لا تعرفني.

ـ أنا أمّك يا حبيبي. . أمّك التي ما شبعت عينيك.

لـَما دخلت البيت الكبير كنت ارتجف من شدّة البرد، هرعت نحوي زينب وغطتني بوشاحها الصوفي الطويل؛ ثم هيأت لي مجلساً أمام موقد النار، كما أرسلت في طلب الأكل لي، توقعت أنها ستخبرني بشيء ما. . بدت وكأنها كانت بانتظاري.

ـ هل من جديد؟

ـ لا. . يقول فاروق أنه سيعطيك ميراثك يوم غد ولك أن تغادري المكان.

ـ أوف. . أخيراً.

ـ ضاوية. . سامحيني.

ـ لمَ. . لا شيء يستدعي ذلك.

ـ لقد عرفت أنك رفضت عرض فاروق بالزواج منك. . أنت أصيلة.

تجمدت اللقمة التي كنت على وشك ابتلاعها، وتوزعت في سعال مبحوح.

ـ أنا يا زينب تعبة. . تعبة جداً، لا أريد العودة إلى تلك الغرفة أين لا أملك حريتي، هناك كل النساء تخاف على أزواجها مني، والله ليس يعنيني أحد، أنت التي تعرفين الباشا آغا حمدان، هل يمكن لامرأة عاشرته أن تساويه برجل أخر؟

ـ نعم. . ليس يساويه رجل في الدنيا.

ـ أريد فقط العيش في بيت بمفردي، والله لن أتزوج مطلقاً.

ـ اسمعي لم لا تذهبي إلى الدزاير وتسكنين هناك، سوف تكونين بعيدة عن كل العذاب الذي تتحدثين عنه، الدزاير ناعمة وتعيش فيها المرأة بسلام، سوف أعطيك كثير الأسماء التي ستقف إلى جانبك وتواسيك. . لدي أقرباء كثر هناك.

ـ الدزاير. . !

ـ نعم الدزاير وسأزورك كل صيف.

ـ وأمي والعبزوزي؟

ـ أه منك لا تزالين ساذجة.

الدزاير.. صعب جداً أن تصعد فكرة بحجم الدزاير إلى رأسي المثقل بالفقدان والصداع، لست أعرف أحدا فيها؟ ولا كيف هم سكانها؟ قال لي حمدان ذات مرة أنها ممتلئة باليهود، لا لن أذهب إلى النصارى، سوف أعيش غريبة وضائعة، على الأقل في عزيز تعيش إلى جانبي أمي والعبزوزي الذي يصير ولي أمري عند كل طارئ، هناك من سيكون ولي أمري؟

نهضت من فراشي كما مجنونة، تسللت إلى غرفة زينب كي تحدثني أكثر عن الدزاير، لست أفهم لماذا يرتعد خاطري كلما جئت على ذكرها وتنتابني رعشة باردة، تسري في كامل جسدي كما الآمان العميق، نعم أريد الذهاب إلى هناك، ربما سأظل مفتونة بكل ما هو بعيد.

عند باب غرفة زينب عرفت أنها نائمة، لا خيال لفتيل يراقص ظلال الأثاث، عدت أدراجي بذات الحرص.

صادفت الخادم عثمان على مقربة من باب غرفتي.

ـ هل تحتاجين شيئا؟

ـ لا.. لا كنت أريد الحديث إلى زينب.. لكنها نائمة.

ـ هل تشكين من أرق؟ إن شئت أنوب عنها وأسليك بعض الشيء.. هل ننزل إلى بهو البيت حيث الموقد الكبير.

لطالما تمكن هذا الرومي من النيابة عن النساء، ليس هناك أمهر منه في تحضير غسول الشعر، ولا في خلطة العسل وزيت اللوز لتلطيف بشرة الوجه، والأدهى أن يديه سحريتان عندما تلعبان بالخيط لإزالة الشعر من الوجه والساقين، قلت في خاطري ربما قد يحدثني عن الدزاير.

ـ نعم. . لننزل.

كان قد تجاوز الأربعين وطال شعره بعض الشيب، فقط لا يزال بذات الإيحاء، ليست ترافقه الرجولة، وجهه الأرمد وعيونه الحالمة تفوق غنج النساء بكثير.

ـ لا تزالين جميلة.

ـ لقد نالت مني المواجع، أتحسس تجاعيد الحزن في كامل جسدي، أتركنا من هذا الآن، هل تحدثني عن الدزاير؟

حدق فيّ طويلاً ثم انفجر دفعة واحدة:

ـ المدينة التي تكون على البحر، تغسل أحزانها بسرعة، الموج فيها ينظف القلوب في كل لحظة، يمكنك داخلها أن تتكلي على الزحام، على الأسواق، على الشرفات والأغنيات لتنال من حزنك وضجرك، الدزاير كما مالطا. . نوارس بيضاء تراقص الهواء كي يدخل رئتيك نظيفاً وعطراً.

ـ توقف عن هذا الشعر وحدثني كيف هي الدزاير؟

ـ إنها مثلك. . رغم كل مواجعها تحتفظ بجمالها وكبريائها.

تسلل هذا الإطراء من رجل أعرف مسبقاً أنه لن ينفع لشيء إلى قلبي، عاودت ثقتي بنفسي

ـ إذن ما دامت تشبهني. . لابد أن أعيش فيها؟

جثم الحالم على ركبتيه وقبّل يدي مرات عديدة، وهو لا يردد سوى عبارة واحدة:

ـ خذيني معك. . أرجوك. . خذيني معك.

حدثني عثمان عن أشياء كثيرة هناك، عن الدايات وعن نساء السطوح البيضاء، عن الأسواق التي يباع فيها كل شيء، عن الحوانيت التي تتمكن النساء من الدخول إليها، وعن الحمّامات الرخامية، عن البخار الذي أشتهي، قال أنه سيموت إذا لم يرافقني، أخبرني أيضا عن البيت الذي اشتراه المرحوم زوجي هناك، إنه في زنقة الجنايز، هو يضم غرفتين وخيامة ومنزه وبرطوز وزريبة ودريبة، لم أكن أعرف ماذا تعني هذه الأسماء، غير أنني شعرت بألفة قديمة تجمعني بها.

اقتنعت بضرورة الذهاب إلى مدينة تشبهني.. تبقى أمامي الآن كيفية إقناع الباشا آغا فاروق، هل سيوافق على منحي منزل الدزاير؟

ـ ضاوية هناك أمر هام، لو أن الباشا آغا فاروق سيقوم بتوزيع عادل للميراث سوف يتضرر كثيراً، لقد سمعته يقول ذلك بأذني.

ـ إذن سأترك له الميراث مقابل منزل الدزاير.

***

بعد قليل سأصل إلى عزيز والتقى العقونة، يا ربي كم أشتاقها.. أشتاق عينيها الناطقتين، وجهها المدهش، صراخها المتحدث، وصبرها الكبير عليّ، لاشك أنها يئست من عودتي مجدداً، لقد مرّ وقت طويل وأنا أحاول الشفاء من ضياع إبراهيم في الداميات.

ها هي سعّدة تقدم لي العزاء المتأخر من جديد، لا أحتاج لأحد يذكرني بضياعه، دخلت غرفتي سريعاً كي لا تعاودني قبضة ذكراه الحادة، وسط تلك الوجوه التي تحاول أن تظهر الحزن، كأنما احتفظت به كبيرا طوال هذه المدة، تساءلت عيوني عن العقونة.

قد تكون في الإسطبل، حملت زهور معي وهرعت إلى الإسطبل، كانت هناك تغفو إلى جانب العجل الذي صار أكبر. . يا الله. . علها نالت العذاب من سعّدة وزوجات أبنائها في غيابي.

مسحت على جبينها برفق. . فتحت عينيها الكبيرتين، ترجم الصراخ بيننا كل شيء، تعانقنا صراخاً وحدثتها عن كل شيء صراخاً. . قلت لها أنني سأذهب من هنا إلى الدزاير، لقد وافق فاروق على منحي بيت أخيه في الدزاير، كما أنه قدم لي كثيرا من المال.

ـ إنني ثرية وسعيدة يا صديقتي.

سأبقى هنا ليومين فقط، أجمع فيهما أغراضي وأودع أمي والعبزوزي وأرحل من هذا الجحيم، سوف يأتي عثمان وبعض رجال الباشا آغا فاروق هذا الثلاثاء كي نطير إلى مدينة تشبهني، تراقص فيها النوارس الهواء كي يصير عطراً ونقياً، لو أنها سعّدة ترضى وتقبل بذهابك معي. . سأكون الأسعد في هذه الدنيا.

لن تفهم سعدة حاجتي إلى صمت العقونة على الإطلاق.

ـ العقوبة ابنة خالي، لقد أتيت بها كي تساعدني في أشغال البيت مذ كانت طفلة، ماذا لو جاء والدها وطالبني بها؟

ـ والدها كثير العيال ولن يسأل عن خرساء.

في صباح ذلك الثلاثاء، وقبل وصول عثمان حملت إلى سعّدة شنتوفي[١] المرصع باثنتي عشرة قطعة ذهبية، قلت لها كلمة واحدة:

---

(١) عقد تقليدي يحوى على شريط قماش أسود تثبت فيه دوائر من الذهب. .

ـ يا سعّدة. . أنا وحيدة والعقونة تواسي غربتي هناك.

سعدة لم ترض، توسلت إليها أمي من دون فائدة، وعندما وصل عثمان وبعض رجال الباشا آغا بدأ الجميع في البكاء، لم أكن أعرف أنني أحبهم جميعهم رغم كل ما فعلوه بي، اقتربت مني أمي ووشوشتني قائلة:

ـ لا تخافي عندما تجدين رجلاً مناسباً، سوف نفك رباطك عند حد الأرض الزراعية، فقط لا تكوني عاثرة الحظ.

سعّدة أيضا بدّت حزينة لفراقي، وحدها العقونة تركت المكان ونامت بقرب العجل كي تبكي دون أن يراها أحد، ستأخذ أمي تلك البقرة وعجلها، سنذهب جميعاً يا صديقتي دفعة واحدة، ركبت على ظهر البغل من دون وداعها، العبزوزي كذلك لم يأت، لاشك أن الذين يهربون يطعنهم رحيلي أكثر.

كان عثمان حالماً جداً، وسعيدا لأن فاروق قبل برحيله معي، وكيف لا يقبل؟ لا يوجد أمان أكثر من هذا، هذا الرجل ليس يشكل خطراً على النساء. . مشينا بعض الأمتار قبل أن أطلب منهم العودة لأنني نسيت أمرا هاما. .

دخلت بيت سعّدة بسرعة، مسكتها من يدها وقلت لها:

ـ أريد منك أن تخبريني أمر واحد قبل رحيلي، ما اسمها العقونة؟ حرام أن أظل أناديها في ذاكرتي بالعقونة.

بكت طويلاً. . كادت أن تقول لي خذيها. . هيا خذيها.

ـ اسمها عائشة.

صفعت الباب الخشبي وأنا أشد دموعي، كانت أمي لا تزال في غرفتي تجمع أغراضي التي ستحملها جميعها إلى بيت زوجها.

كنت أبتعد.. المدينة لا تفارق حدودها، حدود الرؤية هي التي تفارقها، تنهدت بكل حدود الضلوع وقلت للتي لا تسمع:

ـ وداعاً عائشة..

[3]

لن ألتفت. . لن أجر شيئاً من عراك هذا الهواء إلى داخل رئتي، لابد أن أسرع نحو نوارس بيضاء تراقص الهواء طويلاً. . حتى ينزل على روحي رائقا صافيا من كل غيمات العناد، لابد أن أسرع وأتخطى أبواب المدينة قبل أن يمسك بي شيء ما من الخلف.

ـ ما الذي تراه سيمسك بي من الخلف؟

تلاحقني كل خيالات الماضي، تتحول إلى أشباح تضاعف من سرعتها كلما ثبتت مواطن آلامها في خاطري، أجبت خاطري أكثر من مرة:

ـ لا شيء يعلق في الهواء. . ولا في الأتربة. . آلامك القديمة تعشش في رأسك، وحدك أنت من سيقرر تركها على الطريق.

وما اقتنعت. .

ظل ظهري يقاوم تمسح الأشباح به، يحث يدي على شد لجام البغل والدفع به إلى الأمام، حتى صرت قبل الجميع في ركبنا الصغير.

تقدم نحوي أحد رجال الباشا آغا وقال:

ـ من أجل سلامتك التي كلفتُ بها، عليك البقاء في الخلف، نحن من سيقود الركب.

حتما لا أعرف الطريق، ولا يمكنني قيادة الركب، لكنني هاربة.. والهارب ليس يعرف مكانه القادم، كل همه الركض بعيداً عن مكان ذعره.

صرت أنزل الذكريات من على جلدي، أطرحها أرضاً.. وأعاود القبض على تلك التي تحاول الفرار إلى داخلي مرة أخرى، أتضايق من مراوغتها، من لعبة التخفي في أخر القلب، مسكت بالكثير.. ربما نجح بعضها في التخفي والتوغل، لم أتمكن من اللحاق بالعضة كلها، صعبة جداً بواطن الروح، تضاريسها مضنية وهي تتوارى بحيطان العمر.. أتعبتني.

عندما أضناني الركض خلفها بكيت، من الجيد أن أبكي، علها الحيلة الأنثوية الوحيدة التي تجيد غسل الذكريات، لاحظ عثمان عبراتي الخفية ثم اقترب مني وردد:

ـ الذي يتأهب للسفر، يقدم دموع الشوق مبكراً.

ـ لست أبكي فراقاً، أبكي كي تنتهي الآلام هنا، أبكي كي يتخلف الهواء عن اللحاق برئتي، أبكي كي أتقيأ الماضي من أقصى الروح.

جاوبت عثمان في سري قبل أن تبدأ السماء في بعث زخات مطر قوية، صار الجميع يسارع نحو شجرة قريبة، تعمدت أنا التريث في اللحاق بهم.

ـ عندما تمطر السماء في وقت واحد مع العيون، هل يعني ذلك أن الله يساندنا؟

بكيت أكثر. . صار وجهي يغتسل بالمزيج المتوحد في المساندة، وروحي تتحسس النسمة الباردة القادمة من الشمال، صرت أخف. . قتل المطر الأشباح أيضا.

بقينا لوقت طويل نراقب المطر الذي جاء كما نوبة غضب حارقة، ثم واصلنا المسير. . سألت عن طول الرحلة نحو الدزاير.

ـ ليس أكثر من ثلاثة أيام.

قريبة هي الدزاير إذن، لا أعرف لماذا تخيلتها بعيدة، رحت أفكر في الذي سيشغلني عن الطريق، قد أكون هيأت الحلم سلاحا قاطعا للطريق. .

بدأت في الحلم.

* * *

أخافتني الجبال الشاهقة المكسوة بالثلج حين وصلنا إليها ليلاً، قال عثمان:

ـ سننصب خيمتنا الصغيرة هنا. . تحت هذه الأشجار الوافرة.

شعرت بانقباض ما وأنا أرى منظر الأشجار المتشابك في الظلام، قطعاً نحن على حافة غابة، طلبت من عثمان أن نختار مكاناً أخر للمبيت، الأشجار هنا باسقة والغابة ليست بعيدة، قد تباغتنا الذئاب ليلاً.

اتجهنا نحو الوادي حيث وجدنا صخرة كبيرة يمكنها ردع لسعات البرد القاسية، أضرم أحد الرجال النار، لا يزال الشتاء غاضباً، والبرد هنا أكثر لسعاً من مدينتي.

ـ هل الدزاير باردة هكذا؟

ـ لا . . المدن البحرية لا تعرف الثلج أبدا، إنها ناعمة ومعتدلة على الدوام.

طمأنني عثمان بكلماته عن مناخ الدزاير، يبدو أن الدزاير تشبهني فعلاً، لأنني أمقت البرد، أمقت عضاته القاسية، الشتاء يسرق مني لوني القمحي القادم من نور سنابل صيفية.

نمت تلك الليلة تعباً وحلماً، أرت الوصول إلى الدزاير بأقصى سرعة، تحسست المفتاح الكبير للمرة الألف، أنا التي سأفتح الباب، لا أحد سيقوم بذلك سواي، سأدخل برجلي اليمنى، كما أني سأطلي عتبات الغرف بالحنة كي لا يلحقني الميمون، تقول أمي أن حظي العاثر سببه الميمون الذي قلبّ جفنة الطعام وجلس فوقها.

كيف هو هذا الميمون؟ حتى تردد النسوة في مدينتي.

ـ لا زهر ولا ميمون

عند خيوط الصباح الأولى فتحت عيوني، فرحت بالسماء الصافية رغم درجة البرودة المتدنية، قدمت أكواب اللبن وقطع الكسّرة للجميع؛ كي نبدأ المسير سريعا، سألت عثمان عن المسافة المتبقية مرة أخرى، ليست تريحني هذه الجبال العالية المغطاة بالثلج عن أخرها.

ربما يتوجب عليّ أن أرتدي أثواباً إضافية، لم أحمل معي أغراضا كثيرة، لقد تركت كل شيء في غرفتي حيث لا تستطيع الأثواب الحديث مع أحد، ولا الأفرشة التوغل في ذاكرة أجساد لم تألفها، هربت من كل شيء . . قطعاً لن أتخلص من أوجاعي الكبيرة، لكني على الأقل لن أقبل برفقة الأوجاع الصغيرة.

سيزورني الحنين ذات غربة، ربما أحن إلى أمي والعبزوزي وعائشة، سيلحقني الفقد، لكن ليس يهم الآن، سأوزع الشوق لاحقاً، لذلك مواعيد قادمة لا محالة، المهم الآن أنني مرتاحة، أشعر وكأنني تخلصت دفعة واحدة من كل شيء، ولا ظلال للحزن في عيوني.

سوف أرسل في إحضار أمي والعبزوزي ذات الصيف، يقول عثمان أن بحر الدزاير عاشق عنيف، يدخل الجسد بالكامل، يقبض على الروح حد الغرق، عندها لن يكون أمامك خيار سوى الارتواء من مائه المالح إلى حدود الشهقة المجروحة، أو أن تطفو على السطح كما روح نقية، لطالما أحببت نزوات القلتة في الدَاميات، كنت أدرك أن لغة الماء هي الغمر، لذا كنت أنزل بجسدي إلى القاع وأتنفس أحلامي، هيا.. أيتها البغال هيا بسرعة، أحلامي تناديني.

غافلت الطريق طويلاً بالحلم هذا الصباح.. حتى تقدم عثمان وأيقظني:

ـ أسمع صراخاً، هل تسمعي؟ إنه صراخ امرأة.

ـ لا.. لا أسمع شيئاً.

أسمع صوت أحلامي، طوال عمري وأنا أحلم.. لم أصادف حلماً واحداً عالي الصوت.. كل أصواتها خفيفة.. هادئة.. هذا الحلم فقط يأتيني الآن بوقع شديد.. يحدث ضجيجاً جميلاً في خاطري، يرسم المنزه والبرطوز والخيامة في المخيلة فلا أتمكن من سماع شيء غيره يا عثمان. تراجع أحد الرجال إلى الخلف كي يستطلع الأمر، فجأة وصلني الصراخ، أعرف هذا الصراخ يا ربي، أعرفه جيداً، توقف الجميع عن

المسير؛ حتى لاحت قامتها المتعبة، وهي تلوّح بوشاحها الأسود في السماء، تستنجد صراخاً كما كانت تفعل دوماً.

نزلت من على البغل مسرعة، وضعت زهور على الأرض وركضت إليها.

كانت تجهش بالصراخ الناطق، أثوابها الممزقة تظهر بعض أجزاء جسدها النحيل، لكمات قاسية لحقت بها على وجهها وصارت تتلون بالأزرق والبنفسجي المحمر، أرجلها الدامية من طول الطريق تتعثر بألمها في كل خطوة، فهمت على الفور أنها تعرضت لاغتصاب مرير، رفعت عنها ثوبها فتأكدت من ذلك، الدماء الجافة على فخذيها تؤكد امتناعها الطويل.

عاودنا نصب الخيمة كي تتمكن من تشد أنفاسها، أضرمنا النار من جديد، بللت قطعة قماش ومسحت بقع الدم من على فخذيها؛ ثم غسلت وجهها مرات عديدة حتى تعود سنحتها الغائبة، قدمت لها بعض الحليب الساخن، وضعت صندوقي على الأرض، وأخرجت لها ثوباً يسترها، لم أهدأ ولم تتوقف عن البكاء.

ـ لماذا فعلت ذلك. . لماذا تبعتني؟

تذبحني دوما أجوبة هذه المرأة التي تخرج من عينيها.

ـ سيلحقني العذاب بعدك، سوف تقتلني نسوة البيت بالأشغال التي لا تنتهي.

ليس أفظع من أن تترجم أجوبة عيني امرأة خرساء، حين يتكلم البريق بلغة واضحة مفهومة ومحددة، ضممتها إلى صدري طويلاً؛ ثم غطيتها وتركتها ترتاح بعض الوقت.

ظل الجميع على وقع الذهول، كيف تمكنت من اللحاق بنا؟ كيف تحملت أذى الطريق؟ إنها مجنونة، ألا تعلم أن الطريق مليء باللصوص وقطاع الطرق.

ـ إنها تريد البقاء إلى جانبي فحسب.

كان القهر يتلوى في داخلي، لو أني ودعتها وطلبت منها انتظاري، لو أنني طلبت من العبزوزي إقناع سعدة، ستستمع له بالتأكيد، يتمكن العبزوزي دوما من إقناع الناس بورعه، هي أكثر تمسكا بي، لقد خذلت أنا رهانها المكتوم.

***

لم أشأ أن أزعج غفوتها اللاهثة.. رغم أنه يتوجب علينا المسير قليلاً قبل حلول الظلام، أعطيت زهور لعثمان، صعدت برفقة عائشة على نفس البغل، كنت أريد أن تستند على ظهري وتنام، جذبت ذراعيها حيث شابكتهما على بطني وشددت لجام البغل، لم نتوقف هذه المرة رغم الظلام، قال أحدهم:

ـ لم يبق الكثير.. ها هو سهل السحاولة يلوح في الأفق.

أصررت على ضرورة النزول والخلود للنوم، أدرك جيداً أن وضعية ركوب البغل ستزيد ألام من فقدت عذريتها اغتصاباً؛ لما نصبنا الخيمة أكد لي عثمان أنها أخر ليلة لنا في الخلاء.

ـ في الغد وقبل الزوال سنكون في الدزاير.

لم أعد استعجل الوصول، ما حدث لعائشة أفسد لهفتي، جعلني أموت غيظاً من تلك الوحوش الآدمية التي لا تعرف الرحمة، نامت بسرعة مرة

أخرى، كنت على ذات تعبها وقهرها؛ توسدت وفاءها ونمت بجانبها.

* * *

ربما لم أكن قد غفوت بالكامل، حين نزلت عائشة على رأسي تخبط وجهي براحة يديها، من الصعب أن تترجم كلام يديها وأنت عائد لتوّك من غفوة تعب، دخل عثمان بعدها خيمتنا، وكأنه الأنثى الثالثة التي يتوجب عليها الاختفاء.

ـ يداهمنا قطاع طرق.. يا ربي سترك، ليس يرسل معنا الباشا آغا رجالاً ضعفاء.

يردف عثمان ذلك، وكأنه يقدم عزاءً لنفسه بصوت مسموع، لم ينتبْني الخوف ولا القلق جراء هذا الاشتباك الذي يدور في الخارج، كذلك كان الأمر، لقد تمكن رجال الباشا آغا من طرد قطاع الطرق الذين داهموا مكان تواجدنا، فخرجنا بسرعة عندما تراجعت أصوات حوافر الخيل نحو البعيد.

ـ لقد ذهب الجبناء.

تقدمت من أحد الرجال الذي كان ذراعه ينزف جراء ضربة عمياء بسكين غادر، لم يكن الجرح عميقاً.. واصل عثمان ربط الجرح، بينما ذهبت أنا لتحضير شراب الزعتر الساخن، تقول أمي إن الشراب الساخن مفيد بعد كل خلعة[١].

كانت هذه الحادثة آخر ما عرفناه في رحلتنا التي بدت طويلة، أخيرا وصلنا إلى الدزاير.

---

(١) بمعنى الصدمة.

لم أتمكن من تحديد شيء، كل ما في الأمر بيوت بيضاء ذات طوابق وحولها خضرة هائلة.

ـ هذه هي الدزاير؟

سألت عثمان بتعجب، لكنه أخبرني أن هذه البيوت هي جنان الأعيان وأنها بيوت للراحة والاستجمام في فصلي الربيع والصيف، الدزاير قابعة في الأسفل عند البحر.

ـ وأين هو البحر؟

ـ أنظري هناك.. إلى أفق السماء إنه البحر.

في الوهلة الأولى كان من الصعب علي أن أفصل بين لون أرزق سماوي شاسع وأخر داكن قليلاً عند الأفق البعيد، كل هذا بحر..!

ـ لم أكن أعلم أن البحر هو نصف السماء.

بقيت لوقت طويل أتابع استقامة ذلك الخط في السماء، لم يتحدد لي وجه البحر حتى وصلنا إلى الأسفل، حين سمعت صوت الأمواج لأول مرة في حياتي.

بدت عائشة منتعشة وسعيدة رغم كل ما حل بها، سعادتي كانت أكبر ونحن ندخل وسط جموع الناس الذين لم يتوقفوا عن الحركة، لم يهتموا بأمرنا أيضا، في مدينتي يعرف الغريب من جموع الأطفال التي تلتف حوله، شاهدت البيوت المتلاصقة بعضها ببعض، كادت رقبتي أن تلتوي وأنا مشدودة نحو الشرفات التي تطل منها النساء الجميلات في استحياء مكشوف.. البيوت الكبيرة.. المآذن الهائلة، الأبواب المقوسة، منابع الماء الطالعة من الأرض والمستندة إلى الحائط في غنج أنثى غاوية.. نزلت لأشرب.. يعتريني عطش مالح.

ـ كيف تمكنت هذه المياه من الصعود إلى فوق. . المياه عندنا قابعة في القاع؟

ضحك الجميع على دهشتي. . وأنا أواصل فتح عيوني على كل الذي حولي. . حتى الحمير بدت لي سريعة وغير متثاقلة، تخيلتها مغناجة هي الأخرى. .

لا أحد منا يعرف مكان المنزل غير عثمان الذي صار يتفحص المكان جيداً، صار بريق عينيه مضيئا أكثر، هل تتفحص المدن عيون القادمين إليها؟ هل تعرف العاشق من العابر؟ قد لا تفعل ذلك. . لكنها حتماً نزلت بنسيمها العليل على قلب عثمان، يستحيل أن يغيب العشق من قلبه لأنثى ما، في تلك اللحظات عرفت كم هو عاشق وهش ورائق كما هذه المدينة المستلقية في امتناع أبدي قرب البحر.

ضيعنا الطريق داخل الأزقة الضيقة، صعدنا ونزلنا مرات عديدة، رافقتنا مطارق الحدادين روائح الخبز الساخن، وأغاني الصغار وهم يختبئون خلف الأبواب، وحين نال منا التعب عدنا إلى الأسفل.

ذهب عثمان لوحده هذه المرة كي يبحث عن البيت، يقول لو أنه يجد منبع الماء المسمى بالعين المزوقة سوف يعرف مكان المنزل حتماً.

كانت الدقائق الأكثر قلقاً في حياتي، لقد تأخر كثيراً، خفت أن يضيع وتضلله المدينة شوقاً، طلبت من أحد مرافقينا أن يتبع أثاره في تلك الزقاق ويبحث عنه، غير أنه فضل البقاء كي لا يضيع هو الأخر بحثاً عنه.

بعد قليل عاد عثمان إلينا لاهثاً وهو يردد:

ـ لقد وجدته. . لقد وجدته.

سرنا وراءه برفقة بغالنا، اعترض طريقنا رجل يلبس زياً خاصاً يقول عثمان أنه اليولداش الذي يعمل على أمن المدينة وطالبنا بالعودة.

ـ ليصعد البغل الذي يحمل هذه الصناديق فقط . . الممرات ضيقة.

نفذنا أمره وصعدنا مشياً على الأقدام، بقي أحد الرجال برفقة البغال في الأسفل، كان كل شيء من حولي جديدا وممتعا، ركض عثمان نحو باب خشبي مدهون بالأخضر، به قبضة دائرية من الحديد المنقوش.

ـ ها هو المنزل.

تقدمت في زهو لم أعشه نظيراً له طوال عمري، تحسست حزامي الذي خبأت فيه المفتاح الكبير، ثم سحبت عثمان من على المدخل، وقدمت الرِجل اليمين، قرأت المعوذتين وأية الكرسي ثم وضعت المفتاح في الثقب، أدرته وأنا مغمضة العينين ودخلت.

تملكتني رعشة عظيمة تسربت إلى كامل أطرافي، لم أكن بعد قد فتحت عينيّ، لا حاجة لذلك، الفتح دوما مبصر . . شعرت بعزاء حقيقي داخل هذا المنزل بعد فقداني لإبراهيم، سوف لن أجد هنا عيون زوجات أبناء سعدة، سأعيش كما يحلو لي، سأنام وقت ما أريد وأصحو وقت ما أريد، سوف أمشي عارية بين الغرف، سوف أصفع كل العناء القديم.

عرفت الدريبة التي تعني بهو المنزل مباشرة بعد الباب الخارجي، عرجت على الخيامة التي وجدتها مطبخا واسعاً به ثقوب نرمي فيها المياه المستعملة من دون عناء نقلها والتخلص منها خارج البيت، قال عثمان إنها مجاري تحت الأرض! عرفت أيضا الفرن المخصص للطهو بشكله

المخروطي بحيث يسمح بإخراج دخان النار، نحن في عزيز نطهو خارج المنزل بالمرة، اللهم بعض الأكل الذي يتجمر على النافخ، قلت لعثمان:

ـ أنا لا أطهو إلا على النافخ المملوء بالجمر. . أنا صبورة في فعل ذلك.

أما البرطوز فكان غرفة باردة لا باب لها غير نوافذ طويلة توضح فيها المؤونة وتسمى أيضا بيت العولة، يؤكد عثمان أن اللحم لا يفسد هنا لثلاثة أيام، أما الغرف فكانت إحداها رحبة مزينة بالجبس والرسومات أخبرني عثمان أنها «دار الضياف»، الثانية كانت أقل حجما ومخصصة على ما يبدو للنوم.

قام الرجال بحمل الصناديق إلى السقيفة التي تعني المكان الذي يتوسط المنزل، في وسطها تتدلى شجرة ياسمين عطشى، وعدت نفسي حالما رأيتها أن أهتم بها وأسقيها كل يوم، بدأت عائشة لتوها بتنظيف الغرف، فتحت الصناديق ووضعت المؤونة في البرطوز حسب تعليماتي، ثم سحبت الصندوق الذي يخصني إلى غرفة الضياف، لقد أعجبتني سيما ونافذتها المطلة على الشارع، أنا الضيفة الحقيقية هنا، ليس هناك من هو أهم مني، لا أفهم لم نصر على تقديم أفضل ما لدينا للضيوف، ليس ينفع معي هذا الإيثار البليد، أنا هنا كي أستضيف روحي التي ضيعتها المواجع طويلا مني.

أيتها الروح. . سأستضيفك في الدزاير، سأحرص على خدمتك وتفقد خاطرك، سأبذل كل جهدي ليصلك هواء رائق لا يحمل خيالات الماضي، فقط لا تعودي إلى البكاء والنحيب على كل الضائعين.

بدأ عثمان هو الآخر بترتيب الغرفة المقابلة ونقل أغراضه إليها، تحسست المال والذهب الذي خبأته في بطني بواسطة حزام داخلي طوال الطريق، كان يكتسيه العرق، فتحت الوسادة ودسسته وسط صوفها في حرص شديد، لم أترك غير ١٠ موزونات ذهبية، سوف تكفيني لشهور.

[4]

أفقت فجراً، سمعت أذان الفجر لعدد من المؤذنين دفعة واحدة، كان هناك أكثر من مسجد في مكان واحد، تسرب ذلك التداخل إلى قلبي كما الخشوع، كانت كلما فلتت «حي على الصلاة» من حنجرة مؤذن ما التقطتها أخرى بذات العلو والشد، حتى بدت لي «الله أكبر. . لا إله إلا الله» كما نفس واحد ترتب ما ضاع من توحد في الأصوات، بقيت مشدودة لذلك. . في مدينتي بالكاد نسمع الأذان الوحيد.

ليس أجمل من هذا الصباح، هذه المدينة تصحو باكراً، سمعت وقع الأقدام والأصوات في الزقاق القريب، ثم صوت الصغار وهم يركضون وكذا أصوات المطارق التي تعني أن الحدادين قد بدؤوا العمل، فتحت النافذة بشوق، لاحت بعض النوارس في الأفق؛ فاستنشقت الهواء الذي راقصته أجنحتها وهرعت إلى شجرة الياسمين كي أسقيها، أن تعيش معك شجرة في السْقِيفَة يعني أنك تنصبها شاهداً على كل ما سيحدث معك، شهادة الأشجار هامة كي تحافظ على أسرار بيتك، كل بيوت الدزاير تتوسطها شجرة، بيوت عْزِيزْ أيضا لا تغيب عنها كرمة العنب، وكلما تطاولت وغطت وسط الدار بأوراقها الوافرة، كلما كانت الأسرار

تحت جذورها آمنة، كنت تحت اليَاسْمِيْنَة[1] أقوم بزرع أول الأسرار حين فاجأني صوت عثمان:

ـ أها. . لقد أيقظتك الدزاير باكرا؟

ـ إنها مختلفة، من الصعب أن تنام وتضيع عنك نسيمها الصباحي المدهش.

ـ كذلك هي مالطة بحر ونورس وأغنيات.

أخبرتني زينب ذات مرة أن عثمان ليس اسمه الحقيقي، هو اسم منحه له الباشا الأغا الكبير حين اشتراه كي يؤنس ولديه بعد وفاة والدتهم.

ـ ما اسمك؟؟

اتسعت عينا عثمان فجأة، ثم هرب بهما إلى السماء طويلاً قبل أن يبتلع ريقه ويردف:

ـ اسمي كتونيوس.

ـ هل ترغب في أن أناديك كتونيوس منذ اليوم؟ نحن نبدأ حياة جديدة.

أبدى كتونيوس فرحاً كبيرا، لكنني نادرا ما ناديته كتونيوس، بقيت طوال الوقت أناديه بعثمان، هي العادة أقوى من الوعد.

في اليوم الأول تابعت تنظيف البيت برفقة عائشة، وفي اليوم الثاني صعدنا إلى سطح البيت أين اكتشفنا المَنْزَه، هو على شكل قبة توجد في كل البيوت التي حولنا، تصعد النساء إليه كي تنشر الغسيل، وتلتقي

---

(١) تسمى شجرة الياسمين بالياسمينة.

جاراتها من أجل ثرثرة ضرورية، فالمدن الكبيرة لا تحفظ الأسرار، هنا يجلس أيضا أهل البيت صيفاً، قد يحملون مائدة العشاء إلى هنا كي يستمتعوا بنسيم البحر العليل، فرحت بهذا المَنْزَه كثيراً لأنني ابنة السماء، يستحيل عليّ أن أرى السماء من نافذة.

أما اليوم الثالث فقد خصصناه للذهاب إلى الحمام، كان ذلك اقتراح عثمان بعد أن نال منا التعب في تنظيف البيت واكتسى الغبار كامل أجسادنا.

ـ لم أدخل الحمام في حياتي يا كتونيوس!

ـ سيكون ذلك رائعاً، سوف تدمنين الذهاب إليه في كل أسبوع.

في رزمة قماش جمعت بعض الصابون والليفة والغاسول الذي حضره كتونيوس في الحال حيث أضاف هذه المرة البابونج الذي اشتراه من حانوت العطارة القريب منا، ذهبت برفقة عائشة وصغيرتي زهور، كان الحمام بالقرب من سوق كبير، وقصور عظيمة يقولون إن سلطان البلاد الداي مصطفى باشا وعمه حسان باشا شيداها، عند مدخل الحمام عُلقت قطعة قماش تعني أن الحمام يخص النساء، حيث تركني كتونيوس قائلا:

ـ هذا هو حمام سِيدْنا.

تخطيت الباب الأول بحرص تتبعني عائشة وهي تكاد تدخل رأسها بين كتفيها، لم أكن أقل منها دهشة، لكنني أعرف جيدا ما يجب فعله في مثل هذه المواقف.

جلست أرضاً تماما كما فعلت المرأة التي صادفتها عند المدخل،

وبدأت في نزع ثيابي مثلها، طلبت من عائشة أن تقوم بذات الأمر، غير أنها تمنعت، فنظرت إليها نظرة حزم تماثلت بها لأوامري في الحال، تعرت تلك المرأة بالكامل، ولفت على جسدها قطعة قماس وردية اللون مطرزة عند حوافها، لم يكن عندي مثلها لا أنا ولا عائشة، لكنني وضعت وشاح رأسي بدل عن ذلك، وجمعت رزمة الملابس مثلها وجعلتها مقلوبة في مكان جلوسي، وضعت خفي مثلها في مرفع خشبي مثبت في أعلى الجدار، همت المرأة بالدخول بعد أن وضعت الصابون والغاسول والليفة في وعاء نحاسي لست أملك مثله أيضا؛ فحملت كل ذلك في يدي بسرعة وتبعتها كي أعرف مكان الدخول.

شددت الباب الخشبي الذي يهبط من أعلاه حبل ينتهي بقطعة حديد كبيرة كي تبقيه دائم الغلق، وفجأة غابت عني تلك السيدة التي رافقت خطواتها بسبب البخار الهائل.

* * *

عدت إلى البيت وأنا ألعن عثمان مرة وكتونيوس مرات، لماذا أرسلني كما البدوية وسط عناية الأميرات؟ نامت زهور وعائشة فور وصولنا من شدة التعب، بينما صرت أركض خلفه في أرجاء البيت، لحقت به إلى سطح البيت وهو يجيبني ضاحكاً:

ـ صح حمامك.

ـ كيف ترسلني إلى الحمام من دون لوازمه؟ لمَ لم تخبرني أنه يحتاج إلى لوازم خاصة؟ لقد صرت أضحوكة الجميع.

ـ أخبريني ماذا حدث؟

ـ ماذا حدث يا ابن العاهرة. . لقد استعملت وشاح رأسي كفوطة داخلية، وخرجت بها إلى الزقاق مبللة تماماً، كما أنني حملت الماء من ذلك الحوض الرخامي بيدي، بينما كانت النسوة تغرفن الماء بواسطة أناء نحاسي منقوش، حتى عائشة أفحمتني أمامهن، لقد أغمي عليها أكثر من مرة بسبب الحرارة المرتفعة، إذ تلقفتها أيادي النسوة اللواتي وضعن على أنفها نصف ليمونة كي تفيق، لقد تفطن جميعهن أنني غريبة، كما أن وشاحي يختلف عن وشاحهن، أريد وشاحا أبيض حريريا طويلا مثلهن.

ـ غدا نذهب إلى السوق ونشتري كل ما رأيت.

كانت أيام اكتشاف جميلة، صارت تخطفني التفاصيل الصغيرة، حتى لكنة حديث النساء هنا تبدو انسيابية ومغناجة، تثير طريقة كلامي المحددة بالوقف القاطع، أتمتع كثيراً بهذا الانبهار وأخاف أن آألف كل هذا سريعاً ولا يصير هناك ما يخطفني، تمنيت أن تستمر أيامي في الدزاير بذات الوقع لولا عائشة التي عكرت صفو حياتي.

تنطق عيناها كلما سقطت لفتاتي عليها، تلمع أكثر وأكثر، تهرب مني ولا أنتبه، تسقط بالقرب من الياسمينة ولا أنتبه، أغسل وجهها بالماء البارد وأخاف، تتقيأ صمتها وانتبه.

ـ سيكون لي ولد من ذاك الاغتصاب يا ضاوية. . سيكون لي عذاب يتحرك يا ضاوية.

تفطن عثمان لمزاجي العكر، وفي ليلة ربيعية هيأ لنا مجلساً في غرفته التي جهزها بذوق رفيع؛ حتى صارت أجمل من غرفتي، لقد أحضر

عددا من الهيدورات[1] رتبها فوق سجاد تتوسطه صينية نحاسية كبيرة مثبتة على أربعة قواعد، وزع فوقها كؤوس زجاجية زرقاء بهيجة، صب فيها مشروباً غريباً وقال لي:

ـ أنها المدام كي تنسي همومك.

بدت عيونه نصف ناعسة، حملت عنه الكأس المغري، وتذوقت طعمها الحارق الذي لفحني بحرارة لم أستصغها، ربما استصغت يومها حديثه الحزين الذي توغل في داخلي، ولفح كل جراحاتي القديمة، لكنه كان رائقاً على الرغم من الحرائق الكبيرة التي يكابر في إطفائها بالمدام، فصب على روحي هذا المطر:

ـ نحن في الشهر الرابع من عام ١٨٠٠ . . أربع شهور من القرن الجديد، هكذا تمر ثمان وعشرون سنة على وصولي ميناء الدزاير، ولا تغيب مالطة عن عينيّ، كنت شاباً ليس يتعدى الثالثة عشر عندما عهد بي والدي إلى قبطان سفينة كي أصير بحاراً، كنت أخاف ركوب البحر؛ كما حدس لم يأبه به والدي الذي كان يخيط الشباك في ميناء صيد، تقول أمي إن والدي يخاف البحر أيضاً؛ وقد هرب من قبطانه بعد أول رحلة بحرية أضناه فيها دوار البحر، هو لا يريدك أن تصير بحارا بقدر ما يريدك أن تنتقم لجبنه، كما الحظ المطابق تماماً لوجه أبي أضناني دوار الأرض عندما باغتتنا سفينة جزائرية وجعلتني أسيراً في هذه البلاد. . كيف هم الآن؟ هل يذكرونني؟ كيف هو أخي

---

(١) جلد الكبش بصوفه، حيث يغسل ويمشط الصوف، تستعمل كأفرشة للجلوس.

راميليو وتتو وأختي ساره؟ ألا يزال والدي يخيط الشباك التي تعود للبحر كي تمزق من جديد؟، لست أعرف شيئا.

أشعر وكأن النسيان صار كما بعض يدي، صار مثل ألفة نولد بها، لا أفهم لـمَ لا أزال هنا، ولماذا لم أهرب. .؟ أو على الأقل لـمَ لم أحاول ذلك؟ قد أكون تعودت على الحياة في الداميات، ورضيت بهذا القدر البائس، هذه الدزاير من جديد كشفت كل أحزاني دفعة واحدة، كم تشبه مالطة. . آه كم تشبهها.

انخرط في بكاء حار أجبرني على ارتشاف جرعة حارقة من هذا الشراب، قلت في نفسي مادام البكاء حارق، والألم حارق لابد أن تكون المدام بذات الطعم كي تتمكن من النيل منه، عاود كتونيوس الحديث بنفس متقطع:

ـ في ميناء الدزاير اشتراني أول الأمر تاجر كبير، أجبرني في الليلة الأولى على ممارسة الرذيلة معه، كنت يافعاً، وسيماً، عيناي كما بحر مالطة، جنتاي بلون وردها من على شرفات منازلها، كان الأمر قاسيا في أوله ثم تحول إلى لذة ما، لست أفهم كيف بدأت أتورط الحكاية، وأتمايل وأقوم بحركات أنثوية، لعل أكثر ما دفعني لذلك هو وجودي طوال الوقت برفقة عشيق التاجر الأول، الغلام الأحب إلى قلبه والأكثر بهاء وجمالا من كل الغلمان الذين رأيت، بقيت هناك ثلاث سنوات إلى أن توفي التاجر، لقد تخلصت زوجته من العشيق الأول بالقتل، نعم قتلته أمام عينيّ بطعنات متكررة وبغلّ لست أنسى عينيه، أما أنا فقد باعتني إلى الباشا آغا الكبير، ومنذ ذلك الوقت وأنا في الدَامْيَات لا أخرج منها إلا نادراً كي أرافق الباشا

آغا حمدان أو فاروق في رحلاتهم التجارية.

ـ هذا لأنك تجيد التركية والمالطية..

ـ حمدان وفاروق يجيدان التركية أيضا.

ـ هل كنت في علاقة مع أحدهم......

ترشفت كل ما في الكأس وأنا انتظر الجواب.. ذهلت لهذه الحكايات.

ـ ليس يعني الاعتراف الآن شيئا، لقد رأيت زوجة التاجر وهي تقتل غلام زوجها بأم عيني، قد لا تصدقني لو قلت لك أنني لم أمارس الرذيلة بعد ذلك التاجر، ربما تبقى هذا الإيحاء في تصرفاتي كعاهة ركزها الزمن.

ـ لا أصدق؟

ـ لقد نالت منك المدام.. ها أنت صادقة وحقيقية.

أسندني كتونيوس إلى وسادة وغطاني بلحافه تلك الليلة، لم نعد إلى ذلك الحديث أبداً، لكننا تعودنا جلسات المدام بشكل عنيف، كم هي صافية ورائقة تجعلني أكثر تحرراً واسترخاءً، توالت شهور على ذلك الحال، لم تعد تهمني الدزاير، لقد اشتريت أشياء كثيرة، ذلك الوشاح الذي يلف كامل الجسم يسمى هنا الحايك، أصبحت أرتديه بطلاقة، صرت أفضله بُوعْوِيْنَة. [١] اشتريت أيضا وعاء الحمام المنقوش بالطواويس وسروال الشقة[٢] ومحرمة الفتول[٣].

---

(١) طريقة في وضع الحايك حيث لا يظهر من جسم المرأة غير عين واحدة..

(٢) سروال تقليدي جزائري..

(٣) وشاح للرأس تتدلى من حوافه خيوط الحرير..

[5]

الصيف في أوجه، ولا أحد قام بزيارتي هذه السنة. . توقعت أن تأتي زينب كما وعدتني، ربما بدأ ينتابني بعض الحنين، أشتاق العبزوزي أكثر. . كم كان عطوفاً وهو يكاتفني كأب حقيقي، صارت عائشة في الشهر الأخير وبطنها منتفخ بالكامل، ستلد صبياً، لست أخطأ في ذلك، كلما كان بطن المرأة بارزا وفارغ الجوانب كان الحمل صبياً، البنت تتكور بشكل أفقي.

أفكر في مصير هذا الطفل، أخاف أن يصير لصيقا بي، لا أعرف لِمَ أشعر بذلك، زهور أيضا تكبر بسرعة، سأبدأ بتحضير ملابس الصغير. . أتحسس بطنها. . هي تجهش بالبكاء كلما فعلت ذلك، لست أجن لأمر قدر ما تربكني عيناها. .

ـ لو أنه يولد ميتاً

هل ترجمت فعلاً ما قالته عيناها، أم إنني أتمنى ذلك، صرت أحبها أكثر من قبل. . لست أتركها تفعل شيئا. . وحدي برفقة عثمان نقوم بأشغال البيت، هو يفهم أنه كلما شاركني في ذلك صباحاً شاركته الشرب ليلاً.

ـ ليس يتمكن المرء من الشراب بمفرده.

أمور كثيرة تحتاج الرفقة.. حتى الحلم يحتاج الرفقة كي لا يصير شبحاً يسرق الحياة، تفطنت أننا لم ننزل البحر، منذ وصولي إلى هنا وأنا أنتظر الصيف كي أغرق نشوة داخله.. ربما الوقت ليس مناسباً وقد تلد عائشة في أية لحظة..

طلبت من عثمان أن يبحث لنا عن عجوز تهتم بأمر ولادتها فرفض وقال لي:

ـ أنت من سيبحث عن ذلك.. هذه أمور النساء.

ضحكت أولاً.. يبدو أن الدزاير تعيد عروق الرجولة، ثم قلت له:

ـ لكنني لا أعرف أحدا هنا..!

ـ تسعة شهور ونحن هنا.. هل يعقل أنك تذهبين إلى الحمام كل أسبوع ولم تتمكني من رسم صداقة ما؟

نعم.. لم أتقرب من نساء الحمام يوما.. كلهن مغناجات سوف يضحكن من طريقة كلامي، ثم إن حديثهن لا يروقني، لطالما استرقت السمع وكن فارغات، ثرثرتهن لا تبارح التباهي بأثوابهن وحليهن.

ـ أعرف صاحبة الحمام أو «مولاة الصندوق» كما يناديها الجميع هناك، تقربت مني ذات مرة وسألتني عن سر لمعان شعري، فقلت لها إنني أضيف للحناء مقدار من البابونج وأخر من القرنفل.

ـ أطلبي منها إذن أن تدلك على من ستقوم بتوليد العقونة.

ـ لا تناديها بالعقونة يا كتونيوس اسمها عائشة.. عائشة.

عند الصباح هرعت إلى مولاة الصندوق، كان رحم عائشة قد بدأ بإفراز سائل شفاف، إنها علامة الولادة الأولى، أشارت علي بالذهاب إلى بيت

نصيرة الحولة. . قالت إنه بالقرب من زنقة العرايس، أخبرتها أنني لا أعرف هذه المكان ولن أتمكن مطلقا من تحديد هذه الزنق الضيقة والمتداخلة، فأرسلت معي طيابة الحمام على أن تعود إلى عملها سريعا.

انتظرت طيابة الحمام التي ارتدت حايكها كيفما اتفق. . بدت لي معتوهة أو درويشة وهي تثرثر طوال الطريق.

ـ يا لالة. . نصيرة الحولة منحوسة. . لقد مات على يدها عشر نساء، نحن نسميها نصيرة بوعشرة، لو كانت أختك التي ستلد عزيزة عليك لا تقدميها لهذه العجوز سوف تموت لا محالة.

لم أأبه لحديثها الذي بدا لي غريباً، وهي تتعجل الحديث وتبتلع نصفه. . مولاة الصندوق أخبرتني أن نصيرة الحولة هي التي ولدّت كل كناتها، لكنني في غمرة خوف ما شعرت بصدق في كلامها. .

ـ وهل هناك أخرى. . عليّ أن أستعجل، قد تلد أختي في أية لحظة.

ـ نعم. . لنذهب عند بيت الطاوس المرابطة. . إنها مربوحة ولا يولد على يدها غير الذكور. . لكن عليك أن تعطيني الباروك.

أمام منزل المربوحة صارت تلك المعتوهة تنادي بأعلى صوتها. .

ـ خالتي الطاوس. . خالتي الطاوس

لكن لا أحد رد عليها، رمت النافذة الصغيرة بالحصى عدة مرات ولا أحد جاوب عنفها. . كنت أستعجلها بالفعل. . لقد تركت عائشة على مقربة من مخاضها، فدفعت الباب ودخلت المنزل، تبعتها بصمت.

بعض درجات تفضي إلى غرفة كبيرة، يجلس في وسطها كهل شبه

عاري، بالقرب منه إناء مملوء بنوى المشمس. . كان يقوم بعده عندما تقدمت نحوه الطيابة التي تناولت لحافا ورمت به على جسده.

ـ أستر روحك أيها المخبول. .

فرد عليها في عسر شديد:

ـ الحر. . الحر شديد.

ـ أين هي أختك الطاوس؟

ـ ذهبت تحضر طفلا. . لم أعد أستطيع حساب أطفالها، كل نوى هذا المشمس أطفالها. . في كل مرة تقول لي سأحضر لك طفلاً يلعب معك. . وها أنا ألعب وحدي. . لا تصدقوها. . الطاوس لا تحضر الأطفال معها. . هي ترمي بهم للبحر. .

يا ربي. . هل هو وقت المجانين؟؟ أعربت عن ضجري للطيابة وطلبت منها الخروج من هنا في الحال. .

ـ أنا المخطئة لأنني صدقت كلامك. . هيا بنا سريعا إلى بيت الأولى.

كانت لهجتي حادة فالتزمت الطيابة الصمت طوال الطريق، أراحني ذلك كثيرا، لأنني ما عدت أطيق ثرثرتها المعتوهة. مشينا هرولة إلى بيت نصيرة الحولة، قالوا لنا أيضا أنها تقوم بتوليد جارتهم القريبة، شددت رأسي لهذا الحظ العاثر، صار كل همي العودة السريعة إلى البيت. . مسكت بيد الطيابة ولم أتركها طوال طريق العودة، ربما فكرت في أنها ستساعدني لأنني أخاف المخاض، حقا أخافه.

فتح لنا الباب كتونيوس وهو مصفر الوجه. .

ـ لماذا تأخرت. . إنها على وشك.

رميت بالحايك في السقيفة وهرعت إليها، كانت تتوجع. . وعندما رأتني ابتلعت الكثير من صراخها. . هيأت لها وسادات عدة على الأرض، نزعت عنها سراويلها ورفعت بثوبها إلى حدود نهديها. . طلبت منها أن ترفع ساقيها لكنْ عيناها قالت:

ـ اتركيني أمُتْ. . أنا من سبب لك كل هذا العذاب.

حاولت معها مرارا، لكنها امتنعت عن رفع ساقيها والكشف عن رحمها، ناديت الطيابة التي وقفت مبهوتة وسط تمنعها. .

ـ هيا لنرفع ساقيها. . مابك. . وكأنك لا تعرفين عورات النساء.

ـ أختك تبدو غير طبيعية، هل هو مخاضها الأول؟

ـ نعم. . هو الأول هيا ساعديني.

بصعوبة بالغة فتحت رحمها الذي بدى متورما وشديد السواد، طلبت مني الطيابة أن أدخل يدي في فرجها وأحاول معرفة الفتح الذي وصل إليه. . ابتلعت ريقي. . كيف يمكنني فعل ذلك. . توسلت إليها كي تقوم بذلك بدلاً عني. . لا أظنني أتمكن من إدخال يدي في فرجها. . فقامت بذلك على مضض.

ـ لا. . لا يزال أمامها بعض الوقت. . فرجها لم يفتح بعد.

أشارت عليّ بتحضير شراب القرفة لها. . قالت أنه سيساعدها كثيرا. . سترتها بلحاف وقمت بتحضيره في الحال.

ـ في رأيك كم تبقى لها من الوقت وتلد؟

ـ لا أعرف. . ربما ساعة أو أقل. .

ـ وهل يمكننا أن نقوم بتوليدها؟

ـ أنا أخاف المخاض. . ولم أفعل ذلك يوماً. .

حتى أنا أخاف المخاض. . ماذا أفعل الآن؟؟ ماذا أفعل؟ صرت أهيم في أرجاء البيت وأغرق في خيالات محققة بالخوف لا يوقظني منها غير صراخها في كل مرة. .

عاودت تسخين شراب القرفة. . والطيابة لا تقوم بشيء غير الثرثرة البليدة. . انزعجت منها انزعجت كثيراً ثم قدمتها لها قطعة نقدية وقلت لها:

ـ أنت تعرفين البيت الآن. . . اذهبي مرة إلى الطاوس ومرة إلى نصيرة والتي تفرغ أولا أحضريها؟

جلست تحت الياسمينة، أحصد أصعب الأسرار، دعوت الله. . كتونيوس أيضا صار يتمتم بدعوات لم أفهم منها شيئا غير اسم مريم. . وفجأة صار صراخ عائشة غير معقول. . هرعنا إليها. . نزعت اللحاف أمام مرأى كتونيوس الذي عاود الخروج فوراً. . قمت بإدخال أصبعي في فرجها. . بدا لي متسعاً بعض الشيء. . ثم قمت بإدخال أصبعين. . شعرت بالقيء عندما خرجا مطليين بالدم. . فصرخت:

ـ كتونيوس. . كتونيوس

تقدم المسكين مغمض العينين. . مسك بيدها وقال لي:

ـ قولي لها أن تدفع رحمها بكل قوتها

ـ نعم. . نعم نسيت ذلك. .

صارت تزحم. . وعندما تحسست فرجها هذه المرة شعرت بشيء كما الشعر الآدمي اللزج بفعل تلك الإفرازات المهبلية.

ـ إنه رأس المولود يا كتونيوس إنه رأسه.

لكن قواها خارت فجأة.. فتوقفت عن الصراخ.. ولم أعد أتحسس شعر المولود.. قام كتونيوس وأحضر ماءً بارداً وغسل وجهها حتى سمعنا دقات الباب

ـ كتونيوس أسرع.. أسرع وافتح

فاقت عائشة من إغمائها واشتد صراخها أكثر عندما مثلت بين يدَيْ العجوز البدينة التي طلبت ماء ساخنا وبعض الفوط.. لقد استغرق الأمر وقتا طويلاً جدا لا أعرف لما تخيلت أنها ستلد قبل لحظات.. حضرت القهوة للعجوز لكنها لم تخرج من الغرفة.. انتابني القلق فدخلت إليها بعد أن شحنني عثمان بكأس.

كانت قد توقفت عن الصراخ.. بدا لي تنفسها نوعا جديدا من الصراخ.

ـ لم أشاهد مخاضا مثل هذا.. لقد كان المولود على وشك الخروج لكن عضلاتها ارتخت فجأة، وما عادت تساعدني، أخبرك مسبقا ممكن أن يكون المولود قد اختنق.

ـ قالت العجوز التي اكتسى وجهها العرق.. مسحت على جبينها ثم عدت إلى جانب عائشة التي غرست أظافرها في راحة يدي..

ـ هيا.. هيا.. لقد خرج الرأس..

عادت للصراخ الكثيف حين التحق بنا عثمان وشد يدها من الجانب الأخر.. استحوذ صراخها على المكان لحظات طويلة حتى سمعنا فجأة صراخا جديداً رخيما فحملته العجوز من رجليه الصغيرتين وتركت رأسه

للهواء.. رجته مرتين ثم قطعت حبله السري.

❊ ❊ ❊

طالبتنا العجوز بمال كثير..

ـ مخاض كهذا نهايته الموت لولا خبرتي الطويلة.

لم أكن أعرف من هي تلك العجوز؟ الطيابة عادت لعملها بمجرد أن دلتها على البيت، قد تكون نصيرة الحولة وربما الطاوس.. ليس يهمني أن أعرف المهم أن عائشة تنام بسلام وقد أنجبت طفلا سليما.

لكنها أثقلت كاهلي بالأسئلة المتلاحقة، كان كل همها أن تعرف أين هو زوج المسكينة، لم تنتبه لخرس عائشة، توقعت طوال الوقت أنها لا تستطيع الكلام جراء ألام مخاضها المبرحة وعند خروجها قالت لي:

ـ والله الخير حرام فيها، لم تقل لي حتى شكراً.

تبسم عثمان طويلاً، كاد أن يطلق العنان لضحكاته الطويلة لولا نظراتي الحازمة، مسحت عن الصغير دمه اللزج ورتبت لباسه في حب.. ثم قدمته لعائشة التي كان وجهها أصفر كما حبة ليمون.. ابتسمت لي ومنحته ثديها. غطيتها بعد أن وضعت فوطة كبيرة بين فخذيها وهرعت نحو كأس ضروري بعد هذا العذاب في غرفة كتونيوس.

❊ ❊ ❊

احتفلنا بالأسبوع الأول من حياة الصغير، جاءت العجوز التي قامت بتوليدها مرة أخرى للاطمئنان عليها، كانت برفقة الطيابة الثرثارة.

ـ ها ألم أقل لك أن خالتي الطاوس المرابطة لا يولد على يدها غير الذكور

أخيرا عرفت أن العجوز هي الطاوس المرابطة، حضرنا ثلاثتنا جفنة كبيرة من الكسكسي المغطى باللحم وبعثنا به إلى الجامع. . قالت الطاوس:

ـ سوف آخذ بعض اللحم لأخي.

قالت ذلك بلهفة كبيرة. . جعلتني أرتب له سلة بها كل ما لذ وطاب. . قلت لها أن كتونيوس سيرافقك وسيصحب معه أخاك كي يشتري له ملابس جديدة عرفانا لها بتعبها في مخاض عائشة. . شكرتني وصارت تبكي:

ـ أنت طيبة القلب. . لكني أتمنى له شيئا أخر. . هل تعدينني أن تزوريني في بيتي بعد أن يكبر ابن أختك قليلا. . أخي حسان يريد فقط رؤية طفل صغير.

هزتني تلك الأمنية، تذكرت وجهه البريء وهو يقوم بعد نوى المشمس حين قال لنا:

ـ ذهبت تحضر طفلا. . لم أعد أستطيع حساب أطفالها، كل نوى هذا المشمس أطفالها. . في كل مرة تقول لي سأحضر لك طفلاً يلعب معك. . وها أنا ألعب وحدي. . لا تصدقوها. . الطاوس لا تحضر الأطفال معها. . هي ترمي بهم للبحر. .

عرفت منها أنها نذرت حياتها لخدمة أبويها اللذين عمّرا طويلا، ثم لخدمة شقيقها المريض عقليا وأنها لم تتزوج قط. . قالت:

ـ عندما تأكدت أن الطمث غادرني ولن أتمكن مطلقا من الإنجاب. . تعلمت الاعتناء باللواتي سيلدن. . ربما رؤية المخاض آلاف المرات ينسي قهر الحاجة إليه.

[6]

أستند كل ليلة لغفوة المدام.. أتابع خنق الوعي، وإفلاس الذاكرة يوميا بالذي قد يؤذيها.. كنا كما المجانين.. لا نتقن الحديث عن المدينة، ولا عن ضجيجها، كل منا يحمل مدينة وضجيجا، يبكي أحيانا كي تكف الخواطر عن الثرثرة، وفي الغالب نضحك.. لقد ضحكنا كثيرا.

قال لي كتونيوس:

ـ لا يحمل هذا الرضيع اسماً حتى الآن.. يبدو أن والدته لن تحتاج إلى ذلك مطلقا.

ـ نعم.. لن تحتاج إلى ذلك.

ـ المصيبة لو أنه أخرس مثلها.. سوف لن يحتاج لقول ماما.

لم أكن أعرف نقطة الانقلاب داخل السكَر، تلك اللحظة التي تسقط فيها كل الكؤوس من على الرأس، وتمتلئ بالحقيقة.. قلت له أنني سأسميه إبراهيم..

كما وعي مباغت، وربما كما إيحاء لا أقوى على تفسيره وشرح مواعيده الذهنية.. اختلف طعم المدام كثيرا عندما ذكرت إبراهيم.. ها

قد مر على رحيلك يا ولدي أكثر من سنة.. بدأت بالهلوسة الواقعة بين ضفتين.. بين الضحك الماكر والبكاء الصافي.. ضحك الكؤوس لعين.. مجرد مخطط مسبق لبكاء خفي.. وقد يكون جرعة إضافية منه لا غير.. عرفت حينها أن إبراهيم هو الكأس الوحيد الذي يرفض الارتواء..

شربت كل ما خبأه كتونيوس ولا زلت عطشى، نزل على قلبي حزن ملثم بأكثر من رداء، كيف مر كل هذا على رأسي؟؟ كيف وصلت بخيبتي إلى هنا؟ ولماذا تبعتني العقونة؟ حتى ولو تصالحت مع وفائها.. لماذا تنجب ولداً بسببي يا ربي؟ لماذا لا يحمل الرضيع اسماً؟ هل يتوجب عليّ تسميته؟ ماذا اسميه؟؟ نحن ننفق شيئاً من الذاكرة عندما نمنح الأسماء.. ماذا سأنفق أنا عليه؟؟

ـ سأسميه إبراهيم!

نعم أنا بحاجة لهذا الاسم حتى لا يظل مكتوماً في الخاطر، حتى لا تسمعني كل أشباح الدنيا وأنا أصرخ به في عتمة العيون، ربما سأشفي غليلي باسم واحد حتى لا أخون النداء، أيها الرضيع القادم من كل حرائق الوجع، سوف أناديك إبراهيم.

* * *

ينزل الصباح سريعا على المكان، ألعن هذا الوقت القاطع، أكاد أجزم أنني لم أنم، كأنني الآن فقط وضعت الكأس الفارغ فوق الصينية، وربما سقط من يدي، لا أعرف ما الرابط بين ذلك وبين صراخ عائشة.. لماذا تقف عند رأسي هكذا؟؟ لماذا تشير إلى غرفة نومي وإلى الباب؟ تظهر لي

آثار ضرب على يدها ولا أفهم. . تعاود الشرح قياما. . تذهب وتعود وفي يدها طشت ماء، ترش وجهي كي أفيق. . لِمَ هو نوم السكارى هكذا ملثم البدايات؟ ربما صحوت قليلاً جراء صراخها المزعج، وانزعجت منها بالفعل. . كأنما جاءت كي تأخذ مني أهم غنيمة يمنحها المدام. . نوم السكارى يا عائشة لا حراك فيه، هو غفوة عميقة خالية تماماً من أسئلة الوسادة. . فضربت الطشت من على يدها ونهرتها بعنف.

ـ أريد أن أنام. . رأسي مثقل جدا.

ولا تستسلم، تعاود ذات الشرح الغرفة، الباب الخارجي وأثار الضرب على يدها. . أنهض هذه المرة لأطلب من عثمان أن يتولى عني جنونها. . أبحث عنه بنصف عين ولا أجده. . أذهب إلى غرفتي ربما نام هناك، لقد استوليت أنا بدوري على غرفته منذ حكاية المدام. . فإذا بي أصحو دفعة واحدة.

كان منظر الصوف المنبوش فوق السرير كافياً كي تمتلكني رعشة صاحية هزتني بالكامل، تفقدت الوسادة الخالية في رجاء أخير، لكن ردّها كان فارغاً، لقد سرق كتونيوس كل ذخيرتي ومضى، ارتديت الحايك كيفما اتفق وخرجت للزقاق، صرت أبحث عنه في كل الوجوه، قطعاً لم أكن أدقق في ملامح العابرين، العيون لا تتمكن إلا من رؤية حقيقة واحدة، كنت أحاول أن أصدق ما حدث مرة، وألعنه مرات أخرى، آه يا شبيه النساء كيف تمكنت من فعل ذلك؟ لماذا يا كتونيوس، لماذا؟ لماذا كل هذا الأذى بامرأة وحيدة لا أمان لها غير تلك الذخيرة؟ لقد فتحت لك بيتي وكنت فيه رجل الدار، هكذا يا كتونيوس بهذه السهولة تطعن ثقتي بك.

بقيت هائمة على خيبتي طويلا؛ قبل أن ألمح رجلاً يرتدي ذات اللباس الذي كان يريديه الرجل الذي منعنا من الصعود برفقة البغال يوم وصولنا إلى الدزاير، الرجل الذي قال عنه كتونيوس إنه يقوم على حفظ الأمن في المدينة، ترددت طويلاً قبل مناداته.. ذرفت دموعاً عاجلة وتحسرت لكل ما يحدث لي، ها أنا غريبة في مدينة كبيرة لا يقف ورائي فيها رجل، صرت وكأنني أقطع عروق الاستحياء كي أتمكن من الحديث إلى هذا اليولداش.

ـ بجاه النبي يا سيدي لقد سرقت!

نزلت بعينيّ إلى الأرض، وهو يوجه لي عدداً من الأسئلة الهامشية:

ـ أين تسكنين؟ ألا يصاحبك رجل؟ ما اسم زوجك؟

بعد وقت طويل من الشرح المضني، أقنعت اليولداش أخيراً بضرورة اللحاق به في الميناء، وأن زوجي على سفر، وكتونيوس ما هو إلا الخادم الذي طعن ظهر سيده، سيكون في السفينة التي تتوجه إلى مالطة، حتما منذ نزلنا الدزاير وهو لا يكف عن ذكر مالطة وأغنياتها المتدلية من شرفاتها المزهرة.. رّق اليولداش لحالي وصار يركض برفقتي نحو الميناء، بحثنا عن السفن التي ستبحر إلى مالطة، سألنا بعض الرياس عن رجل أرمد أزرق العينين فارغ الطول في الأربعين من العمر دون فائدة، خفق قلبي عندما وجدنا سفينة مالطية ستبحر قبل الظهيرة، كان القبطان كهلاً شديد الوسامة، يتكلم بعض الدزيرية التي تكفي نزول الموانئ، سمح لنا بالصعود إلى سفينته والبحث فيها عن كتونيوس، كأنني أشم رائحته هنا، غير أنني لم أتمكن من صعود تلك السفينة.

ـ هيا. . اصعدي سيدتي، أسمح لك بذلك، على الرغم من أني أؤكد لكما أن الرجل الذي تبحثون عنه لا يوجد على ظهر سفينتي.

عاود القبطان عبارته مرات عديدة، كما حاول اليولداش شدي من يدي لأنه اعتقد أني خفت هذه السلالم التي حوافها بحر، والحقيقة أنني كنت مذهولة من كل الذي حولي، لم أر سفينة في حياتي، كل الذي كان برأسي حكايات العبزوزي عن سفينة نوح عليه السلام، هل أقف الآن أمام سفينة حقيقية؟ راقني شيء واحد فقط أمام هيبة هذه السفينة، إنه كل البعيد الذي هناك، بعد كل هذا المطلق الأزرق مدن أخرى وحكايات أخرى، ترى كيف هي؟ ما هو شكلها؟ أتوق لمشاهدتها فعلاً، وخزتني حكاية كتونيوس من جديد فوضعت يدي على قلبي وصعدت ظهر السفينة، بدت لي فسيحة جدا أكثر مما تخيلت، رفعت عيوني نحو أشرعتها البيضاء المائلة لصفرة التعب، كم تشبه الأجنحة في امتثالها المثير للهواء، وكم تشبه القلوب في خفقانها الذي لا يتوقف، ابتلعت صوت خفقانها الجميل داخل ذاكرتي، كان ذلك من أجمل الصور التي لابد أن تحتفظ بها الذاكرة وسط كل حرائقها، فعلاً العيون لا تتمكن إلا من رؤية حقيقة واحدة، نسيت كتونيوس، ظلت السفينة حقيقة وحيدة تطفو على دهشة عينيّ المفتوحتين، فتشت في وجوه المسافرين الذين كانوا قلة من دون جدوى، ثم ذهب بي اليولداش إلى حيث يكدس الحمالون أكياس القمح، وبدأ يبحث عنه بين صفوف الأكياس وسط ضجر القبطان منا الذي بدأ يروح ويجيء ثم صرخ في وجه اليولداش:

ـ هذه سفينتي وأنا على علم بكل ما فيها، لست أكدس البشر كما الأكياس.

ثم تمتم ببعض الكلمات الرومية، من سوء حظه أن اليولداش فهم معناها، عله يجيد الرومية أيضاً؛ فنشب شجار حقيقي بينهما، كنت أرتجف وسطهما وهما يتبدلان الشتائم بلغة لا أفقها، حتى وصل بعض مساعدي القبطان، وفصلوا بينهما بالقوة؛ حيث كان اليولداش يشد عنق القبطان الذي ظل ثائراً.

أخبرني اليولداش ونحن على أهبة النزول من السفينة أنه قال له:

ـ لست أكدس البشر كما الأكياس مثلما يفعل العرب!

نزلت مرغمة، وأنا أكاد أجزم أنه هنا، لطالما أخبرني أنه يريد الرحيل إلى مالطة، ماذا كان سيخسر لو أنه طلب مني مالاً كي يرحل، والله كنت سأفعل.

فجأة عاود اليولداش الصعود إلى ظهر السفينة كأنما نسي شيئا ما، قابله القبطان بضجر أكبر وقال له:

ـ ماذا تريد مرة أخرى، هل نفتح لك الأكياس، ربما مارد علاء الدين حول الرجل الذي تبحثون عنه إلى قمحة.

ـ لا تتطاول أكثر أيها الرومي، تذكر دائما أنك في حمايتنا، نريد أن نبحث عن السارق في الجزء السفلي من السفينة، وسط المجد فين.

امتعض لون القبطان، ثم ترك لنا الطريق كي نهبط إلى تحت، كنت خلف اليولداش أتابع ما يحدث في تعب، كل هذا بسببك يا كتونيوس، ماذا فعلت لك حتى يلحقني منك كل هذا العذاب.

كما القبو المظلم كان الجزء السفلي من السفينة، حيث ينتحب

المجدّفون أقدارهم السيئة، كانوا موزعين على طول جانبي السفينة، في صفوف متساوية يجلسون على مقاعد خشبية طويلة تجمع ستة إلى سبعة منهم في كل صف، يخرج من ثقب دائري في جدار السفينة عصا طويلة عليهم أن يدفعوا بها مرة إلى الأمام ومرة إلى الوراء.

وسط بؤسهم الكثيف صرت أبحث عن كتونيوس، كانت أيادي البعض منهم دامية ومتورمة جراء التجديف المستمر، بقيت أوزع إشارة النفي لليولداش قبل وصولنا للصف الأخير، حيث أخرج أحدهم رأسه من ثقب المجداف، قال صاحبه لليولداش:

ـ إنه مصاب بدوار البحر.. لقد أخرج رأسه كي يتقيأ.

جاوبه اليولداش بمكر:

ـ لا بأس.. ننتظره

كنت قد تراجعت في خطوات إلى الوراء لأنني فقدت الأمل نهائيا في العثور عليه، ولكن اليولداش اقترب منه وجذبه من تلك الفتحة وسحبه نحوي:

ـ أنظري إليه.. أنظري قد يكون من تبحثين عنه.

اتسعت عيناي فجأة، وأنا أراه متنكراً داخل أثواب بالية، كان هو كتونيوس، فصرخت:

ـ هو.. إنه هو

قام اليولداش بتشديد قبضته بينما ظل كتونيوس يصرخ بكلمات رومية، وحين قاده إلى ظهر السفينة تجمع حولنا كل المسافرين والعاملين هناك، حتى المجدفين صعدوا برفقتنا.

وحين همّ اليولداش بالنزول من السفينة تقدم قبطان السفينة في غضب:

ـ إن الرجل يصرخ ويقول أنه ليس هو. . كما أني أذكر وجهه جيداً، يعمل هنا في هذه السفينة منذ سنة وتزيد.

فتبعه المجدفون والعاملون في السفينة بالصراخ:

ـ نعم ليس هو. . ليس هو من تبحثون عنه.

نظر إليّ اليولداش في امتعاض.

ـ هيا تأكدي سريعا من وجهه؟

ظل المجدفون يصرخون ويقتربون بأيديهم نحوي، كتونيوس ظل مطأطِئ الرأس يغسل وجهه البكاء الصارخ. . لست أدري ما حدث لي عندها. . رفعت له وجهه بيدي وقلت له:

ـ أنت كتونيوس، لست التي تخطئ فيك، عار عليك كل ما فعلت.

ثم اتجهت بنظري إلي اليولداش متظاهرة بالارتباك والخجل.

ـ نعم ليس هو، لقد أخطأت ملامحه لأن القبو كان مظلما.

سقط كتونيوس أرضاً بعدما رفع عنه اليولداش قبضته العنيفة وهم بالنزول السريع، هرعت خلفه حتى دون النظر مجددا إلى عيني كتونيوس.

ظل اليولداش طوال الطريق متذمرا مما حدث.

ـ تمنيت لو أن المجدف كان من تبحثين عنه، كنت سألقن ذلك القبطان درسا لن ينساه.

لقد كان كذلك. . والله العظيم لقد كان هو من أبحث عنه، لكني لا أعرف لمَ تصرفت بهذا الشكل، ربما تذكرت كلامه ذات حرقة مدام عن وطنه، لم أشأ أن أستمر في ربط هذه الغربة إلى عنقه، وربما قدرة إلهية كانت إلى جانبه أجبرتني على التصرف بذلك الشكل. كانت السفينة تبتعد، ربما أبحرت قبل موعدها خوفا من مداهمة جديدة. . .

كتونيوس لا تخف، عدّ إلى مالطة عدّ تلك التي تتدلى من شرفاتها الأزهار العطرة، عد تذكر أني ما أوجعتك مثلما أوجعتني.

وداعا كتونيوس.

* * *

عدت أدراجي حزينة أكثر، أحمل معي غيمة من الوخز. . ظل يتساقط على رأسي طوال الوقت، أخبرني اليولداش بضرورة رفع التظلم إلى قاضي المدينة:

ـ قد يكون كتونيوس هذا هنا. . ربما سنجده. .

صببت وابل غضبي على المسكينة عائشة تلك التي لم تعرف كيف تدافع على ذخيرتنا. . ماذا سنفعل.؟ من أين سنعيش. .؟ لابد أن يعرف الباشا آغا بما فعله خادمهم الأمين. . ذاك الذي كانوا ينكحونه لا شك.

جلست تحت الياسمينة، لم أكن رائقة لأتحدث إليها، رغم ذلك بعثت بنسيمها المنعش على وجهي، خف الوخز قليلاً، ثم صار يتماوج، يتصاعد تارة ليبلغ أقصى أعالي الندم، كيف تركته؟ كان لابد من الإمساك به وامتثاله أمام القاضي الذي سيعيد إلي نقودي كاملة غير منقوصة، ما هذه الورطة يا ربي، ثم أعود وأقول لعل هذا الألم، ألم العوز أخف من

الألم الذي كان سيقهرني لو قبض اليولداش على كتونيوس وساقه إلى اليابسة بعدما اعتقد أنه سيعود لا محالة إلى مالطة.

بقيت في مد وجذب طوال الليل، وفي الصباح فكرت في العدول عن الذهاب إلى قاضي المدينة، لقد تركت السارق يهرب بإرادتي، ماذا سأقول للقاضي:

ـ والله لقد رأفت لحاله، هو هنا مند ثمان وعشرين عاماً ويشتاق بلاده.

لم أتحرك من سريري وأنا انتقل من تخمين إلى آخر، حتى لمحت عائشة من شق الباب تحمل رضيعها وتتبعها زهور في بكاء غيور، لقد فسدت طباع صغيرتي بالكامل، طوال اليوم وهي قابعة بقرب الرضيع، حاولت أن أرسلها إلى الكتّاب لكنها لا ترضى، تغافلني وتعود إلى جانب إبراهيم. . كيف يمكنني أن أنبه عائشة إلى ضرورة مراقبتها، قد تضع شيئاً في فمه، قد تلحق به الأذى، غيرة الأطفال خطيرة أيضاً.

لماذا أصر اليولداش على رفع التظلم إلى القاضي، ماذا أفعل؟؟ ربما سألقي ذلك اليولداش يوماً، أو قد يأتي للبحث عني، لقد أوصلني بالأمس إلى باب بيتي، أنا غريبة هنا وأخاف حضوره، لا. . من الضروري متابعة الحكاية إلى أخرها، في النهاية لا أحد يعلم أن ذلك المجداف هو كتونيوس غيري وطبعاً القبطان والعاملون في تلك السفينة، لاشك أنهم كانوا متواطئين معه.

قمت من على سريري في رجفة مباغتة، هي رجفة القرار النهائي، نعم سأذهب من أجل رفع التظلم، التحفت ومشيت نحو قصر السلطان الداي

مصطفى باشا، كنت أعرف مكانه، في أسفل القصبة، غير بعيد عن حمام سيدنا الذي صرت أدخله بثقة كاملة، لست أقل منهن، وربما كنت الأكثر بذخاً بعطوري القوية والغالية.

تقدمت مني الأسبوع الماضي صاحبة الحمام وسألتني عن نوع العطر الذي أضع، أخبرتها أنه مزيج عطر الياسمين والمسك، أرشدها إلى دكان العطارة الذي اشتريته منه، ثم قلت لها في فضول:

ـ لِمَ يسمى حمامك بحمام «سيدنا»؟

ـ لعل السبب في تسميته بـ«سيدنا» كما يقول صاحبه الأول يعود إلى أيام بنائه الأولى، حيث تأخرت امرأة في البيت السخون وبقيت لوحدها، وعندما كانت تغرف الماء من الجابية[1] الرخامية خرج لها أسد كبير فصارت تصرخ وتقول: يا سيدنا. . يا سيدنا، على أساس أنها تقدم طاعتها وولاءها للجن الذي ظهر في هيئة أسد. . بعد هذه الحادثة أصبح الجميع ينادونه بحمام سيدنا.

يا ربي. . يا سيدنا. . لا أعرف ماذا أفعل؟ ساعدني في فك هذه الكربة، أشعر بغياب العبزوزي، لو أنه معي؟ قد لا أجيد الكلام أمام القاضي، أجزم أني سأرتبك، قطعاً لن يفهم أحد ماذا أقول.

* * *

باب القصر موصد، الجمع غفير ينتظر منذ الصباح الباكر، لا أعتقد أنني سأتمكن من إسدال تظلمي، بدى لي كأن دوري لن يصل أبدا، لولا

(١) الجابية هي الحوض الرخامي في الحمام حسب اللهجة العاصمية. .

الحاجب الذي فرق بين النساء والرجال، كان عدد النساء قليلا جداً فزاد ذلك من توتري وارتباكي، سوف أبدو كما الهجالة[1] من دون رجل، ترفع صوتها وسط الرجال، ليس يروقني حالي البتة، فهمت الآن لماذا كان يصر العبزوزي على ضرورة تزويجي في كل مرة.

خطفت روحي من هذه التخمينات التي لا تدرّ غير الأسى، انشغلت بتأمل النساء اللواتي كنّ بالقرب مني، كانت أحداهن سافرة الوجه.. توحي ملابسها أنها رومية رغم حديثها العربي.

ـ كنت هنا.. قبلك.

لا.. ليس يهم سأترك لك مكاني، يهمني جدا أن لا يبدأ بي القاضي، أما الباقيات فكن عربيات ملتحفات مثلي، لكن عيونهن تشع ثقة، ذلك الأمر الذي يظهر معكوسا في عيوني، كنت ارتجف وعلى حافة بكاء.

فتح الخدم الباب الكبير للقصر، فظهر المكان خرافيا، رواق كبير تصطف على طوله الأعمدة الرخامية المنحوتة، يفضي إلى مجلس القاضي الوقور الذي جلس أرضا وحوله زرابي باذخة، وصينيات نحاسية يؤمّن بها عطشه المباغت بين تظلم وآخر، على جانبي الرواق جُعِل لنا مجلس طويل مرصع بالزليج، جلسنا بهدوء قبل الرجال الذين أصدروا ضجة كبيرة وهم يأخذون مقاعدهم على حسب الوصول.

بدأت أرتعد، لم يسبق لي المثول في حضرة قاضٍ، في مدينتي الصغيرة كل الأمور تجد لها حلولا بواسطة العبزوزي، لا قاضٍ ولا انتظار.. لماذا فعلت بي كل هذا يا كتونيوس.

(١) الأرملة في اللهجة العامية.

كنت سأقوم بالحيلة ذاتها، أستمع إلى النساء الثلاث اللواتي سيرفعن مظالمهن قبلي، وعلى حسب طريقتهن سوف أتحدث للقاضي، أعرف أنها حيلة بلهاء، لكنها ستجنبني بعض الارتباك.

يجلس إلى جانب القاضي عدد من الرجال الوجهاء، يقبع أحدهم على طاولة صغيرة وضعت فيها دواة وبعض الأوراق للكتابة، خفت كثيرا من ذلك.. وفجأة ساد صمت قاتل.. بدأ فيه القاضي بالحديث:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا طه الأمين، سنبدأ مظالم العباد في ولاية الداي مصطفى باشا حفظه الله وعاونه في إثبات العدل والأمان، ها هو يوم السادس من شهر شوال لعام ألف و ثلاث مئة وثلاثة عشر.. الموافق لـ١٢ جويليه ١٨٠٠ أيها الحاجب أحضر أول الحضور.

اتجه الخادم إلى صف النساء مباشرة، فقامت امرأة ترتدي حائكا حريريا مطرزا على جوانبه بطريقة مكثفة، فهمت من كثرة ذهابي إلى الحمام أن الحائك المطرز بطريقة مكثفة عند الحواف يدل على الجاه والمال، وكلما قل التطريز كلما قلت مكانة المرأة الاجتماعية، فعلا.. هذه السيدة مكثفة الثقة وهي ترفع تظلمها:

ـ يا سيدي القاضي أنا نفيسة بنت إبراهيم الياقوتي، أرملة التاجر صالح بلعيشي، أملك قطعة أرض بسهل متيجة، نصفها أشجار برتقال وليمون، والنصف الثاني نزرعه خضروات ثلاث مرات في السنة، يقوم على زراعتها الموجود بيننا سي أحمد بن نفاري.

توقفت المرأة قليلاً ريثما قام الحاجب بالمناداة على هذا المدعو سي أحمد بن نفاري، الذي وقف إلى جانبها، فتابعت الحديث:

ـ سيدي. . كانت هذه الأرض تدرّ علينا خيرا وفيراً، يأخذ هو خمسه في أول الأمر، ثم يبيع المحصول المتبقي، ويحضر لي الثمن المعلوم، فأعطيه خمساً أخر لقاء بيعه للمحصول، وكنا على تراضٍ، غير أنه هذه السنة لم يعطِني شيئا، لقد قال لي إن وابل المطر أفسد الثمار كلها، وقد تأكدت من هذا الكلام، سكان سهل متيجة تضرروا جراء هذا الوابل المباغت الذي تزامن ووقت قطف البرتقال، قلت لا بأس في ذلك إنها الزراعة هكذا، لكن يا سيدي نصف الأرض تزرع خضروات فأين هو محصول الخضروات. ؟

إنها امرأة قوية، فصيحة اللسان ليست تخجل في طلب الحق، كيف يمكنني أن أرتب كلاماً مثلها.

ـ يا سيدي القاضي أنا الضاوية بنت عبد السلام العزيزي أرملة الباشا آغا حمدان درورسي الساكن بمقاطعتكم في الطيطري، لقد جئت للعيش بينكم منذ فترة، برفقة خادمه عثمان، وعثمان هو كتونيوس الغلام المالطي الذي اشتراه الباشا آغا الكبير لأولاده كي يؤانسهم بعد وفاة والدتهم. . لقد حصلت على ميراث كبير لكنني تركته لأخ المرحوم واكتفيت بالمنزل الموجود في زنقة الجنايز و٣٠٠ موزونة ذهبية.

كان الرجل الواقف إلى جانب المرأة القوية مطأطِئ الرأس وهو يرد على اتهاماتها بصوت منخفض:

ـ يا سيدي ما لحق بالشجر لحق بالخضروات أيضاً.

فقام القاضي من مكانه وقد انتفض غضباً:

ـ حرام عليك هذا الادعاء الباطل، الأرض تغرس ثلاث مرات في السنة بالخضروات، وإذا كان ما تقوله صحيحاً فهذا يعني أن محصولا واحدا من الخضروات قد تلف بسبب الوابل، فأين هو محصول الخضروات مرتين كاملتين، هيا اذهب وأجزل لها حقها، سوف تحضره إلى هنا عداً ونقداً بعد ثلاثة أيام وهي المهلة التي أمنحها لك.. انتهى التظلم.. أيها الخادم أحضر التالي.

كانت الأحكام في هذه البلاد تقضي بالبدء في مظالم النساء قبل الرجال، وهكذا تقدمت الثانية وكانت مرتبكة قليلاً، الواضح أنه خلاف عائلي، فلم أتابع حديثها.. كنت منشغلة بترتيب الحديث سراً.

ـ قلت لك يا سيدي القاضي أخذت المنزل و٣٠٠ موزونة ذهبية، كما كان عندي بعض الذهب وهو عبارة عن شنتوف به ١٢ قطعة ذهبية وخلخال فضي يزن رطلا ويزيد، وأيضا شمسية كبيرة بها أحجار من الياقوت والزمرد.. لقد أسرّ لي ذلك الخادم الذي أعتقه الباشا آغا فاروق أنه يتمنى العودة إلى مالطة.. لكنني ما توقعت أن يقوم بسرقة ممتلكاتي.

ارتج قلبي عندما أشار لي الخادم بالمثول أمام القاضي، لكنه كان يقصد سافرة الوجه التي كانت إلى جانبي، انتفضت هي الأخرى وقامت تتمايل وكأنها تستعد لغواية ما، بدت لهجتها مختلفة وهي تبتلع حرف العاء وتجعله ألفاً، لكنني تمكنت من متابعة حديثها:

ـ يا سيدي القاضي أنا كاترينا سنتوتشي من جنوة، وزوجي ماكيلو سندوتشي مهندس بناء، قطعاً تعرفونه، هو من ساهم في بناء هذا المكان الذي نجلس فيه اليوم، منذ ثلاث سنوات مضت رافق زوجي سفينة ذهبت إلى جنوة قصد إحضار بعض مستلزمات البناء لكنه لم يعد. . انتظرته طويلاً وأنا الآن أعيش فقراً مدقعاً، وأريد من حاكم البلاد أن يرأف لحالي، وأن يسدل لي عطاءً شهريا أسد به رمق أولادي الثلاث. . وإلا يرسلني إلى جنوة وهناك أعود إلى أهلي وأعيش معززة مكرمة.

فهمت من حديثها أن شرح الحكاية لا يكفي، لابد أن أحدد طلبي في الأخير، إذن سوف أتابع تظلمي بالشكل التالي:

ـ يا سيدي القاضي. . أتيت من مدينتي إلى هنا كي أعيش بسلام في ظل أمنكم الذي تحرصون على إقامته بين العباد، لذا أريد منكم البحث عن هذا المدعو كتونيوس وأن ترجعوا إليّ ذخيرتي على الرغم من أني أكاد أجزم أنه قد غادر البلاد متجهاً إلى مالطة. وإلا تدبروا يا سيدي أمري ولا تتركوني أجوع بينكم.

لم أكن قد فكرت قط في أن القاضي سيطلب مني شهوداً.

ـ نعم هناك شاهدة. . إنها عائشة لقد قام بضربها عندما حاولت منعه. . لكنها خرساء.

قهقه الجمع الحاضر طويلاً، ثم جاء رد القاضي الذي أمر بالبحث عن

كتونيوس أولاً، وبعث تعليمات لرياس البحر كي يساعدونا في العثور عليه.

* * *

شعرت بضياع كبير وأنا في طريق العودة إلى البيت، لقد حبك عثمان خطته بصبر طويل، استدرجني طوال أشهر كي أدمن المدام فيضيع عقلي ووعيّ ليتمكن من سرقتي في هدوء، لكنني أستحق كل ما يحدث لي، لقد تركته يفلت من يدي بسهولة، بدت لي المدينة شريرة وماكرة.. كل تلك المظالم عن السرقة والمكر والجشع، كم هي مدينتي هادئة، ليس يُسرق فيها أحد.

تلقفتني كل المواجع القديمة وأنا أعبر الزنايق[١] الضيقة، كنت أدس بعضاً منها في تلك الخطوات، وأنثر البعض الآخر في السماء والحقيقة أنني سرقت مرتين، سرق من بهجتي كتونيوس وسهراته الرائقة، وسرق مني مالي الذي توقعت أنه سيبعد عني الحاجة طويلاً.

أفكر في الباشا آغا فاروق، هل سيجزل لي العطايا في كل عاشوراء، لابد أن يفعل وإلا سأموت جوعاً، يقول العبزوزي أنني لن أجوع فأنا سليلة أشراف مولاي عبد السلام، لكن في مدينة كهذه عليّ أن أتوقع ذلك، يبدو أن منزلا في الدزاير لا يحل الأمر، ماذا لو كنت أملك قطعة أرض مثل تلك المرأة التي قدمت تظلمها إلى القاضي أو حتى متجراً، سيكون الأمر مكتملاً، لا أعرف لِمَ لمْ أفكر في ذلك يوماً، حتى تلك

---

(١) مفرد زنقة وتعني الحومة أو الحي.

النقود لو بقيت كم كانت ستكفيني؟ فعلاً أنا ساذجة ولا أفكر في العقوبة[1] كما ظلت تنعتني زينب.

تتحرك في داخلي رغبة ملحة في شرب كأس، غرفة عثمان ليست تضم شيئا، لقد أنهينا كل الشراب ذلك اليوم، يبدو أنني لن أتذوق طعم المدام مرة أخرى، ربما لست أحملها الذنب كاملاً.. أحتاج الآن طعمها الحار.

تجلس أمامي عائشة وهي تحمل ولدها إبراهيم، لا تكف صغيرتي زهور عن رصد كل حركاته، أدرك أن أعظم ما في هذه المرأة أنها لا تتعامل مع المسببات، ليست تريد معرفة ما حدث بيني وبين القاضي، ولا أخبار السفن المتوجه نحو مالطة.. كل ما تطمح إليه اللحظة هو مواساتي، أتساءل في داخلي لِمَ لا أحدثها، لِمَ لا أفتح لها قلبي الهرم بمواجعه، البوح الحقيقي ليس يحتاج جواباً.

أيتها العقونة اسمعي:

«كم تساوي لحظة فرح؟ نعم.. كم تساوي؟ كي أحضر قامتي للتسديد، كلما لاح فرح إلا ودفعت ثمنه مضاعفاً، لذا ما عاد يهمني أن تمنحني هذه الدزاير أفراحاً قادمة، يبدو أن الحظ العاثر لا يتبدل بتبدل المنازل والمدن، ها هو الميمون يقلب جفنة الطعام ويجلس فوقها كما كانت تقول أمي دوماً، أحيانا أتمنى لو أنني لم ألتق حمدان، ولا عرفت قصوراً ولا بذخاً.. لو أنني تابعت طفولتي بسلام، تزوجت حسان بن العبزوزي، واكتفيت بتلك العيشة البسيطة. كنت صغيرة على مقاسات

(١) العاقبة باللهجة المحلية.

الحياة الكبيرة، لم أكن أدرك أن ذلك الفارس الذي وقف أمامي ذات دهشة، سيحملني إلى كل هذا الشقاء.

أشتاق طفولتي الهادئة، لا تعرف غير روابي عزيز الخضراء، وسمائها الممتدة حيث الملائكة والله، أنهض كل صباح، لأرافق نعاجي في رحلة العلف اليومية حتى المساء.

كم أحببت ذلك الانطلاق الصباحي نحو البعيد، منذ الطفولة المبكرة راهنت على البعيد الذي سيحمل حتما الكلأ الكثير والماء الصافي، تعلمت ذلك من نعاجي، لم أكن أوقف مسيرها، كنت أترك لها كامل الحرية، وكانت تترك لي كل المطلق، أتوه برفقتها، كل الرعاة يعرفون ذلك التوهان الجميل، الذي ينطلق نحو الأخضر، ولا يعرف طريق العودة حتى تكتمل دورة الشمس اليومية، النعاج لا تخطئ، لا تذهب إلا حيث يوجد الكلأ والأمان، هكذا تورطت البعيد برفقتها، وثقت به.

في مدينتنا يسمح للصبية بالمشاركة في الرعي والزراعة حتى بلوغها، وعندما تداهمها الدورة الشهرية الأولى سوف تقبع في البيت وتتعلم أشغال المنزل، ولن تخرج إلا لبيت زوجها، أبالغ في الهروب إلى البعيد كل يوم، كلما تذكرت ذلك.

تحمل نعاجي أسماء صديقاتي اللواتي دخلن البيوت بعد أول دورة حيض، كلما انسحبت واحدة أعطيت اسمها لنعجة. . صار عندي خديجة وزوليخة ومباركة ويمينة والعلجية.

تحسست أمي سراويلي الداخلية مرات عديدة، تقول أنني أخفي عنها

أمر حيضي، قوامي يشتد، أثدائي الصغيرة برزت، ووجهي استدار وصرت أجمل صبية ترعى النعاج في عزيز.

لم أكن بعد قد بلغت عندما قرر زوج والدتي توقيفي عن الرعي، والدخول إلى البيت في انتظار خطوبة مؤكدة من حسان بن العبزوزي، حزنت لذلك، صرت لا أطيق زوج أمي، شعرت بخيبة عظيمة عندما قضيت النهار كاملا في أشغال المنزل الباهتة، أتيت على ذكر والدي.

ـ لو أنه معي.. ما كان ليمنع نعاجي عني.

ـ لكنك صرت عروسا ومغرية، قد يتعرض أحدهم طريقك ويسلبك شرفك.

تخيفني أمي بهذا الحديث، ولا تنجو من تذمري الذي أجزم فيه أن السبب هو غياب والدي، فتردف في استياء:

ـ والدك تركنا واختار أن يعبد الله في الفيافي البعيدة.

لم أتمكن من مفارقة نعاجي بهذا الشكل، في صباح اليوم الموالي طلبت من زوج والدتي أن يسمح لي بيوم أخير، أقضيه مع نعاجي، أودعها فيه ولن أعود لذلك أبداً، فوافق على مضض.

لسنا نحب النهايات المباغتة، تلك التي تترك عضة في القلب، من الهام أن أودع نعاجي على مهل، في ذلك اليوم نهضت باكرا، على غير عادتي، لاحظت تذمر نعاجي التي أفلت من عيونها خيط النوم ومشينا قبل الشمس في جهة الشروق، كنت أمشي بسرعة، ربما لأنني أردت في ذلك اليوم تخطي كل الحدود التي وصلتها يوما ما مع نعاجي، بعد اليوم لا يمكنني تخطى عتبة البيت، لذا شعرت أنه من الهام جدا ملء عيوني

بكل البعيد الممكن، تعبت وتعبت نعاجي، وأنا أحاول أن أتوقف من دون جدوى، كانت العيون تتوق للمساحات القادمة كما لو أنها صفحات من عطش يجب تخطيها كاملة من أجل ارتواء كافٍ.

لم أتوقف، الشمس فوق رأسي تماما، ربما هذا التقدير الشمسي كاف من أجل عودة مؤكدة قبل الغروب، كنت أعرف أن صباح الشمس أطول من زوالها، هكذا كنت أشعر دوما، تركت نعاجي تجتر ما التهمت طوال الطريق، وغطست في غفوة لذيذة وسط هذا البعيد.

لكنني أفقت على خيال رجل جعلني أهيم ذات اليمين والشمال، قد أكون تذكرت كلام أمي عن ذاك الذي سيتعرض طريقي ويسلبي شرفي، أجزم أني تذكرت نصفه أثناء غفوتي، والنصف الثاني عندما فتحت عينيّ على خيال الرجل:

ـ لا تخافي. . لا لن أؤذيك.

تراجعت قليلا بعدما تفحصت ملامح وجهه الطيبة وهندامه النظيف، لا أعرف لم لا أفترض الشر في الذين يرتدون أثوابا نظيفة.

ـ اسمع. . بيتنا قريب جدا من هنا، ولدي إخوة ذكور كثر، سوف يقتلونك لو فكرت في الاقتراب مني.

ـ ألا يخاف عليك إخوتك الذكور الكثر وأنت بهذا الجمال؟

ـ ستكون هذه أخر مرة أرعى فيها. . سأودع نعاجي هذا المساء

خفق قلبي وأنا أحدثه، كم كان أنيقا ومتأدبا، وهو يسألني عن نبع قريب، يقول الفرس التي يركب عطشى، فمشيت إلى جانبه وهو يهش على نعاجي كي تتبعنا هي أيضا.

كان نبع الماء بعيداً بعض الشيء، لكن رفقته بدت قريبة إلى قلبي، فالتزمت الصمت طوال الطريق، وعندما وصلنا النبع ترك خيله هناك، تركت نعاجي أيضاً، ثم جلس تحت ظل شجرة قريبة وهمّ بفتح عمارته[(١)] كي يقتات:

ـ هل تشاركيني بعض الطعام؟

ـ لا شكرا. . لقد أكلت.

لكنني في النهاية شاركته الحديث الذي كان ممتعاً، حيث أخبرني أنه في طريق عودته من رحلة شاقة إلى الصحراء.

ـ والدي هناك في الصحراء

ـ وماذا يفعل.؟

ـ لا أعلم أمي تقول إنه يعبد الله.

ـ (يضحك) لكن. . يمكنه أن يعبد الله هنا.

ـ صحيح العبزوزي يعبد الله هنا، ربما كانت العبادة في الصحراء أكثر ورعاً.

ـ لا. . لا أعتقد. . ربما ينتمي والدك إلى زاوية من الزوايا الدينية المنتشرة كثيراً في الصحراء.

سألني أيضاً عن عمري، وعن مدينتي، كما أجبرني على تذوق بعض حبات التمر، ثم تمدد ووضع عْمارته تحت رأسه، واستسلم لغفوة

---

(١) العْمارة وهي كيس تقليدي مصنوع من الصوف يوضع على الكتف بالطريقة التي تضع بها النساء حقائب اليد.

مباغتة، بقيت حبيسة ملامحه الرقيقة، ليس هناك كما هذه الغفوة فرصة آمنة، لتعداد مواطن وسامة هذا الرجل، كان جبينه العريض حكاية ذاكرة تفترش النور، لا أعرف على أي جنب تنام، لكنها لا شك مطمئنة، لامست قلبي كما مساحة شعرت بها واسعة بل على مقاسي تماما، رموشه السوداء بدت كما الأحلام المقوسة حيث الحقيقة، التي ستتلقفها الأنفاس اللاهثة، يبدو منهكاً. . تحت عينيه هالة زرقاء تؤكد أرقه الطويل جراء سفر مرهق، ربما لم يحدث وأن تأملت ملامح أحدهم بكل هذه الغبطة، كان هناك ما يكفي من الوقت كي تتطابق الملامح على الروح، شعرت بارتياح كبير، ولم أنتبه إلى لوقت الذي كان يخون العودة بهدوء، حاولت إيقاظه لكنها أصابعي لم تقو على النزول فوق جسده المغزول من الألفة التي لا أعرف من أين أتت، أفزعتني الشمس وهي تميل بسرعة إلى جهة الغسق، فجمعت نعاجي وبدأت طريق العودة، وفي قلبي غضة حادة لا أفقه سببها، قلت لنعاجي:

ـ هيا لابد أن نسرع. . سيحل الظلام وقد لا نصل. . البيت بعيد جدا.

لم أكن قد ابتعدت كثيرا عندما لحق بي، وصار يناديني:

ـ أنت. . أيتها الصبية.

لا أعرف لمَ توقفت نعاجي، كأنما صارت تفقه ذاك الذي يتحرك في داخلي

ـ لقد غفوت طويلاً. . لمَ لم توقظيني؟

ـ وماذا يهمني. . تأخرت كثيراً، ولا أعتقد أنني سأصل قبل

الغروب، سوف ألقى كثير التوبيخ من زوج أمي.

ـ أها. . ألم تقولي أنا بيتك قريب جدا من هنا. . ؟

التزمت الصمت بينما صار يهش على النعاج ويحثها على العجلة، ثم طلب مني الصعود على ظهر الفرس، قال إنه سيرافقني لأنني مغرية وقد يعترض طريقي أحد ما، لم يكن سهلا صعود هذا الخيل، فشد على يدي وأنا أهم بالصعود، انتابتني حمى مفاجأة، لم يكن سهلا أيضا ملامسة أطراف يد هذا الرجل الموغل في الرقة، وعندما صعدت على ظهر الفرس بدت لي ملامحه من فوق فرصة إضافية كي أختلس النظر إلى قوامه المرهق. . يا ربي. . كل هذه الأحاسيس شديدة الوقع وهي تتكاثف بهذا الشكل المخيف، ظل يورطني حديثه المرح حتى لاحت بيوت مدينتي في الأسفل، وكانت قبلها الشمس قد اختفت تماماً وجاءت تلك الغيوم الليلية التي صارت تتلون شيئا فشيئا بالظلام، هممت بالنزول، لكنه شد لجام الفرس في امتناع نزق:

ـ هيا انزلني. . انزلني. . سيلحقني الأذى لاشك. . فما بالك لو شاهدوني برفقتك.

صرت أتوسل إليه كي يخلي سبيلي، تدرج الرجاء إلى حدود البكاء، وهو يمانع بابتسامات ماكرة، حتى دخلنا المدينة، كانت عيون الأطفال الذين ينتظرون عودة آبائهم من صلاة المغرب كي يوصدوا أبوابهم تحدق فيّ باستغراب، لمَ هي فوق هذا الفرس الجميلة؟؟ ومن هو هذا الأنيق الذي يرافقها، بقيت أهز الفرس المتواطئة مع صاحبها وأصرخ من دون جدوى، وفجأة وجدتني أدخل في نشوة عميقة، لقد صرت أرسل الابتسامات إلى الجموع وأتمايل على حسب غنج هذه الفرس الأصيلة.

لست أنسى أبدا عيْنيْ زوج والدتي وهو يقف عند الباب مندهشاً ومتوعداً، لم يكن يستطيع الحراك، ولا أنا تمكنت من النزول عندما توقفت الخيل عند عينيه وعيون المدينة التي اجتمعت كاملة أمام مسكننا.

ـ مساء الخير، لقد تعرضت ابنتكم لاعتداء في طريق عودتها بهذه النعاج، لقد لبيت صراخها، وها هي أمامكم سالمة معافاة.

سارعت أمي نحوي تتفقد حالي، أنزلتني من على ظهر الفرس وهي تتمتم:

ـ ليس بك أذى؟؟ أنت التي لم تسمعي الكلام، قلت لك إنك صرت كبيرة عن رعي النعاج لكنك عنيدة.. عنيدة جدا.

ذهلت للذي أسمع، التفت نحو ذلك الفارس فأغمض عينيه على عجل كأنما يريد مني تأييد ادعائه.. ذهبت بي أمي إلى داخل البيت، بينما سارع زوج أمي والعبزوزي إلى استقبال هذا المنقذ، ظل هناك حتى العشاء، ذبحوا له خروفا جعلني آكل كثيرا اللحم الذي لم أتذوقه منذ العيد الكبير.. قالت: أمي إنهم يقرؤون فاتحتي.. وقد قبض زوج والدتي صداقي الذي ليست تناله صبية في هذه المدينة!

ـ وهل هذا الفارس قريب لحسان والعبزوزي حتى يدفع الصداق بدلا عنه؟

تنفجر أمي ضحكاً قبل أن تقول:

ـ هذا الفارس سيصير زوجك.. إنه من الطيطري، من أكبر العائلات هناك، حتى أن والده تاجر تركي معروف، سوف تذهبين إلى الجنة، كم أنا سعيدة بك يا ابنتي وبناصيتك العالية.

بهذا الخطف رافقت في الصباح ذلك الفارس الذي صار زوجي..»

[7]

توالت على حيرتي أيام فاترة، ليس يتحرك داخلها غير الضجر، كنت أهرع إلى جهة البحر كلما ضاق القلب بالذي حدث.

لماذا هو واسع..؟؟ يكفي لغسل كل جراح الدنيا بالملح حتى لا تشكو عفن الذكريات.

كتونيوس الآن في الجهة المقابلة من هذا الأزرق الممتد، يفرحني ذلك.. يفرحني تحت ظل ما داخل هذا الفؤاد، لست أنسى بكاءه المرير وحنينه المفرط إلى أهله وبلاده.

أنتهي وسط كل هذا إلى الرضا.. اذهب يا كتونيوس لقد سامحتك.. والله سامحتك.. لم يبق في القلب غير مكانك الفارغ.

حسمت أمري وقررت أن أنتظر عودة الحجاج، لابد أن أعود إلى الداميات وأخبر باشا الآغا فاروق بالذي حدث عله لا يقطع عني مؤونة عاشوراء، ربما أصير أكثر تطلباً، لا لن تكفيني مؤونة عاشوراء، أريد متجراً في هذه المدينة، عليه أن يتدبر ذلك، هو كثير المال، الحياة هنا ليست بالسهولة التي توقعت، لست أضمن مكائد الزمن، لابد لي من دخل دائم.

صار الصداع ملازما لي، قد يكون ذلك بسبب فقدان المدام، كذلك فقدان القهوة، لا أعرف كيف سأنجو من كل هذا الخراب.

أفرشت الياسمينة الأرض زهورا مكتظة، تتهادى في قطافها المعطاء كما أغنية طويلة، شكل ذلك في خاطري اشتهاء كبيرا جعلني أنهض وأحضر الإبرة والخيط كي أصنع ثلاثة أطواق، لي ولعائشة ولصغيرتي زهور.

بدأت في ترتيب الزهور الملاحقة بأريجها في الخيط، تذكرت كل الخيوط التي تتلاحق أحداثها، هذا الخيط برهان كبير، يشد على كل شيء في تتابع لا يفسر غير لهجة القادم المتوافقة مع ما كان.

تعبت هل يمكن للياسمينة أن تحدثني بكل هذا.. كرهت الخيط.. كرهت الزهور المتتابعة.. كنت سأرمي بها على الأرض وأعود إلى سريري لولا عائشة وزهور اللتان صارتا تجمعان الزهور من على الأرض، كانتا متحمستين لرؤية طوق الياسمين على صدريهما، ساعدني فرحهما على نسيان خيط العمر فتشابكت معهما في ضحكات معطرة.

لكنهما ما وضعاه على صدريهما، لقد قُرع الباب قرعا قويا مفزعاً، رميت خيوط الياسمين على الأرض، وهرعت نحو نافذة دار الضيافة لأتطلع أمر الطارق، انقبض قلبي حالما رأيت يولداش على مقربة من بابي وهو يلهث:

ـ حاكم البلاد يؤمر في مثولك أمامه.

تقطعت هذه العبارة بين أنفاسه ألف مرة.. لم أفهمها في حينها، وما إن رتبتها في ذهني حتى ما عادت قوامي تحملني.

ـ حاكم المدينة بجلاله قدره..؟

توزعت صور كثيرة في رأسي، ثم راهنت على حديث امرأة سهل متيجة التي قالت لي:

ـ يستمع الحاكم الكبير إلى شكاوي العباد من خلال نافذة تطل على الرواق الكبير، هو يهتم بأدق أمور الرعية، وليس يترك المظلومين أبدا.

لم أصدقها، لست أصدق.. الحاكم الكبير الداي مصطفى باشا!!..

يقول كتونيوس أنه رجل عظيم.. كان خزناجيا في عهد عمه الداي حسن باشا، ورث عنه كثير المال والجنان والقصور، هذا الداي يحب المباني الضخمة، وقد قام ببناء العديد من المساجد والقصور.

الحاكم الكبير يطلب رؤيتي؟؟

لفتني نشوة كبيرة وأنا أسير خلف اليولداش الذي لا يزال نفسه المتقطع يصلني، رجفتي أيضا صارت ثقلا يعاند الخطوات، .. أنفاسي ظلت في تقطع حتى صارت أثدائي تصعد وتنزل في جهد أضناني.

هل تتخيل أمي في هذه اللحظات أنني سوف ألتقي سلطان البلاد؟ هل يتوقع ذلك الباشا آغا فاروق مثلا؟ الأرفع مكانة بين كل الذين أعرف؟؟ مدهشة الأحداث وهي تحط على بابي رغم كل وجعها، هي تشبه لونا لا تلمحه إلا هنا في الدزاير.

لا أتمكن من وصف مجلس الحاكم.. لم تجرؤ عيناي على الإلمام بكل الزوايا، كانت حواجز الرهبة قابعة أمام إدراكي كما العمى، تغلف المكان خوفا، الخوف قليل الذاكرة، فقط لباسه المطرز ذهباً لا يزال في عيوني دهشة ترفض الغياب، حزامه الأحمر العريض، عمامته الحريرية الكبيرة، كان موغلا في الصمت، قد لا يتكلم الحكام أبداً، تكفي إشارات أصابعهم فقط ليقوم العالم ويقعد.

صار حلقي جافاً عندما وطأت قدماي زربية العرش، لقد وصلت فارغة من كل جهد، ورغم كل هذا العناء انتبهت لنظرات الرجل الجالس على يمين الحاكم أمامه دواة وبعض أوراق، كانت نظرات لست أخيب في ترجمتها أبدا، لكني لا أكشف عن وجهي.

لم يكلمني الحاكم مطلقاً، لقد أومأ بيده فقط، فقام الباشكاتب من مكانه نحوي واقترب مني وهو يردد في عجل:

ـ اشكري الحاكم. . أشكري الحاكم.

ضاعت الكثير مني الكلمات وسط إرباك المكان، قد لا أكون شكرت الحاكم، لقد تورمت كل حدود انتباهي وغاصت في خيوط مذهبة تموج كما خيوط الشمس تكدست منذ أزمان غابرة فوق رمال البحار البعيدة.

كما كان متوقعا. . أجزل الحاكم لي تعويضا، صرفه لي الباشكاتب في الحال، المثير أن هذا الباشكاتب ليس سوى صاحب النظرات الغاوية، سرت وراءه إلى حين وصولنا للخزناجي أين صُرف لي المبلغ كاملاً. . كنت سعيدة ومنتشية، لا تكاد السماء تحوي سعادتي، تلك التي تحوى نصف البحر، رأيت النوارس البيضاء في السماء، تراقص الهواء، استنشقته بعمق. . لقد ساعدتني هذه الفرحة على الغواية أيضاً، نعم لقد قمت بغواية الباشكاتب ولا أعرف لمَ فعلت ذلك؟؟ قد يكون بساط الملوك أضاف للعيون رؤية ما؟ لابد من ذلك أمام سحر رجل كان يريد الإيقاع بي، لقد قال لي ونحن نهم بالخروج من غرفة الخزناجي:

ـ احرصي هذه المرة ولا تثقي في الخدم.

عندها نظرت إليه ثم تركت الحايك ينزل على كتفي كي يرى وجهي وقلت له:

ـ سأفعل ذلك.. أنا في زنقة الجنايز إذا أردت أن تعلمني كيف هو الحرص.

أوف.. لم لا.. لا أزال شابة، والأمر هذه المرة مختلف تماماً، يجري كل هذا باختياري، لقد أتعبتني الليالي الكادرة وأنا فيها بمفردي، أتسلق التخمينات ولا أنجو من سقوط الأحلام كل صباح، حيث أصفف شعري وأعود وأخبئه بالمنديل القاتم، الذي سوف لن يفتحه غير عراك الأرق العسير، لا عراك صاحي يوقظ شعري المفحم ومنديله، يحتاج جسدي أن يتواطأ مع غفوة حالمة، ليس عدلا أن تنتهي أيامي هكذا.

* * *

في طريق عودتي طوقتني رغبة ملحة في الحصول على قنينة شراب، كان سيكون الأمر مستحيلا لو لم أفكر بالعطار، لطالما رافقت عثمان إلى هناك لشراء البابونج وصابون الدزاير وبعض الأعشاب العطرية.

كان العطار رجلا فطنا، كما تدل على ذلك بؤبؤا عينيه اللتين لا تتوقفان عن الحركة، راح العطار يتخلص من الزبونات اللواتي كن يطلبن الحناء والعطور ومختلف الأعشاب العطرية.. لقد عرف أنني أريد طلبات لا أريد أن يسمع بها أحد.

لكن الأمر صار ثقيلاً على الطلب، لقد اشتريت كل شيء، كل ما نطق به لسانه وهو يشرح طرق الاستعمال والاستطبابات المختلفة، قبض مبلغا مهما جراء كل ذلك، لكنني لم أتحرك.. هناك طلب أساس لم أطلبه بعد.

يا ابنتي. . أنا رجل أقوم بفروضي الدينية كاملة، لست أتمكن من قضاء طلب كهذا.

عدت خائبة. . ليتني ما قصدته ولا سودت وجهي أمامه، حملت معي تلك الأعشاب والعطور خلاصة طلب خاطئ، وصلت البيت عكرة، مستاءة من فرحة لم يرد العطار إكمالها. . حاولت تهدئة الخاطر بكوب شاي منعنع، شربته في المنزه برفقة بحر مسائي ساكن، كانت ليلة ساخنة. . وكنت على سخونة ما حدث هذا اليوم، بالفرحة التي خلفتها في داخلي زربية العرش، لم أكن أعرف أن الليل لا يزال بطيئا وثقيلا، وأن كتونيوس ترك مكانه في القلب.

كتونيوس لم يسرقني. . لقد سُرق مني، ها هي المساءات تنتظر موعدك، الأكواب الزجاجية يملؤها الهواء ولا تتنفس، تريد المدام كي تُغرق الانتظار الشفاف، وحدي كتونيوس، البيت لا يتكلم، صرت أبتلع كل شيء، حتى النداء على حلم.

أسمع أصوات الجيران، يتهافتون على الضحكات العالية، كأنها ستغيب بعد قليل من على وجه هذه الأرض، يغيظني ذلك، يزيد من تعرقي، غسلت وجهي وأطرافي بالماء البارد، لكنه خاطري ظل مكسورا جراء غياب المدام والضحكات العالية.

تنام باكراً العقونة، هل نسبت أنني قررت البوح لها بالذي عكر العمر، عموماً لا مزاج لي اليوم. . تنقصني المدام وتجعلني حزينة ومهمومة.

كنت في المنزه أبحث عن نسيم بارد وسط هذه الليلة الحارقة، حين سمعت صوت دق الباب، كان دقا ضعيفاً بالكاد عرفت أنه يخص منزلي،

فنزلت مسرعة، صار بابي مشرعا لكل اللاهثين، ماذا لو كان يولداش مرة ثانية، هل من حكاية أخرى، الوقت ليل، ولا مستعجل يمكنه طرق بابي في هذا الوقت المتأخر، ربما سمع الناس بالتعويض الذي قدمه لي الحاكم، قد يكون الطارق سارقا يقدم هذه الرقة في طرق الباب كي يظفر بهدوء القلب، أقسمت على عدم الاقتراب من الباب، لولا الفضول وإلحاح الطارق، وبعد عناد طويل مع ثقب المفتاح تبين أن الخيال الواقف خلف الباب ليس سوى الباشكاتب في كامل أناقته.

ـ مساء الخير.. ها أنا كما طلبت جاهز لدروس الحرص.

ذهلت لجرأته المبجحة، لعبارتي الصباحية التي صارت في المساء كما علكة مومس، هل يعقل أن يكون الباشكاتب بكل هذا السخف، ربما أرغب فيه فعلاً، لكنني امرأة تحب المراوغة، تحب الدلال والغنج والوقت الطويل في استمالة من يرغب فيها.

ـ ما بك هل جننت، لو أنك أتيت نهاراً كنت سأقوم بكرم ضيافتك، لكن أن تعتقد أنني مومس بدوية فهذا ليس صحيحاً أيها الباشكاتب.

صفقت الباب في وجهه بحرقة تخمين ليس ينصفني، من يظن نفسه؟ يقابلني صباحا.. ثم ينكحني في المساء؟ صحيح أنا من قمت بإغوائه، لا أنكر، لكن الأشياء الجميلة عليها أن تراوغ وتتلوى وتتلون بطول بال.

عدت إلى المنزه مسرورة بعض الشيء، رغم ثورة الغضب التي اجتاحتني قبل قليل، لقد أوقعت به.. هذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بشيء مماثل، لطالما اعتبرني الناس غاوية، والحقيقة أنني لم أختر

أي زوج من أزواجي حتى أكثرهم قرباً إلى نفسي الباشا آغا حمدان، يبدو أن هذا الباشكاتب من ذات الطينة، عيناه الناعستان بدلال على امتزاج اللون، تطل زرقاء بظلال رمادية، شعره الكستنائي لعين، كم كان نظيفاً، تفوح منه رائحة لم أفقهها.. ليست مسكاً ولا عنبر.. ربما كانت قرنقلا ممزوجا بشيء آآخر، المهم الآن أنني أوقعت به.. ولسقوطه بين يدي صبرا سأتغلب عليه.

في الصباح ذهبت إلى الحمام، لقد عدت إلى سابق عهدي، أطيب الروائح تفوح مني، لست أنا التي تجوع ولا التي ينال منها الدهر، صرت أكثر ثقة وزهو بنفسي، أموالي عادت إلي، خيوط الحب تنسج لي على مهل، فما الذي لا يكفي هذا القلب كي يفتح للفرح والبهجة؟

في طريق عودتي تعمدت أن لا أجتاز الطريق الذي يتواجد فيه دكان العطارة، غير أن العطار رآني من بعيد فصار يهرول نحوي.. لقد احترمت رفضه وندمت طويلا على تلك الفلتة التي سترسمني فالتة في عينيه، لكنه قصف بال الندم وقدم لي حين دخلت الدكان صندوقا خشبيا صغيرا يحوي أربع قنينات كاملة من المدام ثم أردف قائلا:

ـ سيكون ثمنها كبيراً.. لقد أحضرها شيخ ورع.

استطرد في قهقهات عالية جعلتني أمقت حالي أمامه، لماذا زرع فيّ عثمان هذا العطش وتركني تحت رحمة جشع عطار منافق.

* * *

طعمها مختلف.. تماما كما حدثني كتونيوس «المدام تتنفس الرفقة»، من دون صاحب أو ساق لا تساوي المدام جرعة ماء. شربت كوبين ولم يتحرك

شيء من مكانه، لم تهتز ذكرياتي ولم ترتعش بواطن الحزن المكتوم، ظلت عيوني على ذات اتساع المكان. . لم تخطفني سكرة حانية إلى حيث تقيم خيالات العمر وأشباحها. . عند الكوب الثالث عرفت أنه يجب الاتكاء على أحد. . لن يتكئ السكران على روحه، فقمت وأحضرت عائشة، كانت لا تزال تهدهد رضيعها الرافض للنوم، جلست قبالتي في غرفة كتونيوس. . انتظرت حتى توسد الصغير أحلامه في حجرها.

أيتها العقونة اسمعي:

«عندما وصلنا الداميات، ولاح البيت الكبير من بعيد شعرت بارتفاع ما في قامتي، ربما في عمري، وربما في تصلب حلمات أثدائي، كان شعوري قاهراً لكل ما يمكن أن يفسد عليّ هذه المتعة التي تشبه الحكايات المسحورة، تماماً كما حكايات الحب التي لا تنتهي إلا بالخطف، لا أصدق أنني خطفت من قحالة أيامي السابقة، لا أصدق أنني أسير إلى جانب رجل وسيم جداً، وأنيق جداً، يقول لي إنه أحبني من أول نظرة، وإن شقاوتي تلامس شغاف قلبه، كما أنه سيشتري لي كثير العطور والملابس والمجوهرات. . سيجعلني الأحلى، سيقبل كل صباح كحل عينيّ ولن يسمح بالخيالات المفزعة أن تقتحم قلاع أحلامي، شيء واحد يجب أن أعرفه وأتعامل معه بحذر.

إنه متزوج وله بنتان.

حال وصولنا سيأمر في تحضير غرفة خاصة بي، ستكون الغرفة عالمنا المطل على روابي الفرح. . ماذا يهم أمر الزوجة الأولى؟ تقول أمي إن الزوجة الثانية تأخذ كل الغنج، بينما سيكون على عاتق الأولى كل المسؤوليات.

كنت على ظهر خيل يسمح لي برؤية الناس من علو. . ورؤية الأشياء أيضا من علو. . لم أكن قد نزلت الأرض بعد لأرى أحجام الحقيقة للأشياء.

قامت الدنيا وقعدت عندما دخلت ذلك البيت، كما لم أتخيل أبدا، صارت كالمجنونة، ترمي بكل ما تصادف على الأرض، ظلت تصرخ في استياء. . حاول الباشا آغا حمدان لجم غضبها من دون فائدة. . توزع صراخها على أرجاء البيت كاملا، ووقف على رأسي أنا.

ـ أنا يتزوج عليّ من حقيرة بدوية، من طفلة برزتْ أثداؤها لتوها.

في البداية لم أفهم صراخها بالشكل المطلوب، كنت منشغلة بالمكان، بالأشياء الجديدة التي تخترق عيني لأول مرة، ظلت دهشتي كبيرة تلهيني عن كل شيء، هذا البيت الكبير، النوافذ العالية، السلالم الرخامية، الوسائد المتناثرة، والأرضية المرسومة بكل ألوان البراري، صرت أنتقل بين كل هذا كطفلة ليست تعي ما يدور، ولا تدرك ما ينتظرها، حتى أومأ الباشا آغا حمدان لخادمه عثمان، فسحبني من دهشتي وأخذني حيث يعيش الخدم حتى تهدأ ثورة زوجته زينب.

أفقت على هذا المصير المربك، غرفة الخادمات؟؟ أنا العروس المفترضة. . وهذا شنتوف جدتي كي أرث الحب والفرح معلقا على صدري. . كيف يمكن للباشا آغا حمدان أن يعلق فرحتي هكذا. . بقيت طوال الليل على استناد النافذة أحاول مسك خيال أمي.

وسط حرقتي الكبيرة مع خيوط الصباح الأول لي في هذه المدينة

عقدت العزم على ضرورة العيش في البيت الكبير، كان ذلك أول رهان أخوضه ضد القنطة! نعم القنطة تلك التي تأتي هي أنثى القنوط، تقف بمنتصف الحنجرة فيصير الرمق بطعم دمعة وبطعم علقم ليس يستطيع الخاطر ابتلاعه، تعرفت برفقة الخدم إلى أمور كثيرة ساعدتني قليلاً على فهم طريقة عيش هؤلاء المتعجرفين، ظل الباشا آغا حمدان يتفقدني من حين إلى أخر كنت أرتمي في ذراعيه وأبكي:

ـ لماذا أحضرتني إلى هنا؟ لو عرفت أنك ستلقيني وسط الخدم ما تركت دياري أبدا وما رافقتك إلى هذا الجحيم.

ـ اصبري قليلاً.. والدي مريض جداً ولا أريده أن يسمع صراخ زينب ونوباتها الجنونية.

عثمان أيضاً أكد لي كلام الباشا آغا حمدان، أخبرني أيضا أن زينب لا تزال مهرة جموحة، تريد نقل الخبر إلى الباشا أغا الكبير الذي يرقد على فراش الموت مهما كلف الأمر.

استرسلت الحكاية في الصمت، ها هي الأيام تلف فرحة العروس المغلوبة على أمرها، كان يمكن أن لا يحدث لي كل هذا، بقيت ليالي طويلة أفكر في مصيري، في مخرج لهذه الورطة التي تشبه الخدع الكبيرة، هل خدعني الباشا آغا؟؟ بعد شهرين صرت كما الخادمات، بذات السنحة الضائعة، بذات السواعد المستعدة دوما لأوامر الخادمة العجوز، أروح وأجلب الماء من البئر، أساعد في الأشغال المنزلية، وأنام على عتبة موقد.

كدت اجزم خلالها أن الباشا آغا نسي أمري كذلك زينب.. لكنها لم

تنس لقد جاءت تبحث عني ذات صباح برفقة الباشا آغا الكبير الذي استعاد صحته، مسكت ذراعي بعنف ورمتني أرضا تحت أقدامه.

ـ إنها الصبية التي جاء بها ابنك البار كي تكون ضرة لي، أنظر إليها. . لو أنه لا يعيدها إلى أهلها سوف أترك البيت وأذهب للعيش عند أخي في الدزاير.

حدق العجوز فيّ محياي طويلاً، لا أعرف ترجمة واحدة لتلك النظرات، الآن وقد مضى وقت بعيد على كل هذا، لا تزال نظراته داخل مخيلتي بذات الإبهام، هل كان يشفق عليّ؟ أم أنه كان يساند كنته المصون في بغضها لي؟ لكن الظاهر المعلن هو أنه لم ينطق أمامي ببنت شفة، لقد دنا مني وشد معصمي، مسح عنه أثر الرماد الناتج عن احتراق الخشب، لقد سحبتني زينب حين كنت أطهو الخبر في الفرن الكبير، ثم ترك المكان إلى غرفته.

هرعت زينب خلفه وهي تحاول إسناد إرهاقه الواضح، لكنه فضل الاستناد على عصاه التي لا شك أنها خارت جراء كل الثقل الذي رماه عليها.

في تلك الليلة شعرت بأحشائي تتمزق، بحمى مضنية جعلتني أهذي بأسماء أهلي جميعاً في عزيز، ظلت إلى جانبي الخادمة العجوز، وحدها من يحنو عليّ هنا، لحسن حظي أنها أكبرهم وصاحبة الأمر ونهي يكفي أنها من تقوم برعاية الباشا آغا الكبير، قدمت لي كوب نعناع ساخن خفف الألم قليلاً، لقد زارني الحيض لأول مرة، نامت العجوز إلى جانبي، صارت تحنو كلما عاودني الألم، ثم أحضرت لي فوطاً صغيرة وقالت:

ـ أنت صغيرة جداً يا ابنتي. . صغيرة عن العذاب.

سقطت كلماتها الأخيرة على خاطري كما الشظية التي ستشعل كل الفؤاد، صرت أبكي وأصرخ بكل حرقة الطفولة التي ولت، اجتمع حولي كل الخدم، أصبح الجميع يهدئ من روعي.

ـ لكنني أريد أمي. . أريد العودة إلى دياري.

عبثا أقنعتني الخادمة العجوز أن البكاء وقت الحيض سيجلب الأرواح الشريرة وأنها ستسكنني لأنني غير طاهرة، كنت مستعدة للبكاء الطويل إلى حين إحضار الباشا أغا حمدان.

ـ لا أريد أن أصبح زوجتك، أريد العودة إلى أهلي، لن أعيش مع الخدم، لست خادمة، أنا شريفة، لو عرف أهلي بهذا المصير الذي أهديتني لكانوا قتلوك. . هيا أرسلني إلى أهلي، هيا. .

في بعض الحالات يكون من غير المعقول العيش بمنطق القادم، كنت قد يئست كثيراً وضاعت مني أحلام العطور والملابس المطرزة والمجوهرات. . لو أنه يرسلني إلى أهلي فقط، لا أريد غير هذا ولن أشقى في حلول قادمة تأخر الانتظار في تطريزها.

تلون وجه حمدان وهو يشاهدني لأول مرة بكل هذا العزم، ربما كان على وشك العطف الصارم لو لا النحيب الذي جاء من الأعلى، فتبعه الجميع.

بقيت وحدي برفقة عزيمة خائرة العيون، تطاير شرري على الحيطان، تطاول على الأسقف، ثم تلوى داخل هذه الأحشاء التي صارت تتمزق ولم يفعل شيء غير ذلك.

أعلن ذاك النحيب عن موت الباشا آغا الكبير، مما يعني وقتا إضافيا للحزن، للتريث وللبقاء في سجن الانتظار.

سجنني عثمان من تلقاء خوفه طوال أيام العزاء في غرفته الخاصة، صار يأتيني بالطعام كل مساء ويقول لي:

ـ قريبا ستفرج.. قريباً.

وعندما هدأ وقع المعزّين قليلاً، سمح لي بالبقاء مع الخادمات اللواتي اعتبرنني فأل شر.. لست تلك العروس التي تصاحبها الأفراح الطويلة، منذ دخولي هذا البيت الكئيب ومواعيد الوجع مترامية على عتباته، ماذا أفعل بحالي، لا شيء يستدعي البقاء هنا، أشتاق أمي ونعاجي، الجميع هنا يسيئ معاملتي حتى الخادمات يسخرن مني ومن ملابسي ومن طريقة حديثي.

اقتنعت أخيراً أنني نزوة الطريق التي لم يحسب الباشا آغا حمدان عواقبها جيداً، وبعد.. ليست تعنيني هذه الخيبة، كل ما أتوق إليه الآن هو وجه أمي، هكذا اشتعلت الفكرة في رأسي، فحاولت الهرب نحو مدينتي، في النهاية لا أريد غير ذلك.

وصلت إلى مخرج المدينة حين سمعت وقع حوافر خيل تتقدم نحوي، إنه الباشا آغا حمدان يتطاير الشر من عينيه بعد أن أخبره عثمان برحيلي، لقد كان الشاهد الوحيد.. أمسكني من شعري المفحم الطويل، وقال:

كيف تخرجين وحدك.. ماذا سيقول الناس عني؟

كان لا يزال ماسكا بشعري حين وصلنا البيت الكبير، أين صعدت السلم أمام عيني زينب المشتعلتين، ظل يكرر في لهاث متقطع:

ـ إنها زوجتي. . ولن تعيش مع الخدم بعد اليوم.

تمنيت لو أنني قمت بمحاولة الهرب منذ زمن، لم أكن أدرك أن الحل في الهرب. . طبعا الحل في الهرب. . حتى النعاج عندما ترفض السير أهرب عنها تأتيك هرولة.

أدخلني إلى غرفة جميلة، سرير واسع، ستائر مخملية، شمعدان فضي كثير الأصابع. . والأحلى لقد همس لي:

ـ أطلبي من الخادمة العجوز أن تعتني بك، سأعود آخر الليل.

جاءتني الخادمة العجوز، وهي توزع الابتسامات الماكرة على المكان.

ـ هيا قومي اغتسلي وتعطري لليلة العمر.

صارت تستعجلني، ترش ماء الورد على كامل جسدي، تروح وتجيء على الغرفة التي كستها بخورا وعطرا أزاح عن خاطري وعثاء الأيام الباهتة في غرف الخدم، أخيرا اقتربت مني أحلامي. . تصورت أنني على قامتها تماماً أنهش من سحابات السماء بعض سكر البياض، تخيلت أنني نسيت عذاباتي الماضية وها أنا أزرع كل الذاكرة بياضاً جديداً، الخادمة أيضاً تصر على بياض أخر. . لقد أحضرت عثمان وطلبت مني أن أكشف له عن ساقاي كي ينزع عنهما الشعر الزائد، مانعت طويلاً في ذلك وهو يشد الخيط بفمه وأصابعه بطرقة مذهلة، حتى صرخت في وجهي قائلة:

ـ لا تخجلي منه، إنه بمثابة أخت لك.

انتابني الضحك وهو يسارع في حصد الشعيرات القليلة، وعندما مسحت بيدي على بشرتي الناعمة اقشعرت غابات الأماني في داخلي، علني أحبه وأتوق إلى صدره، أريد السقوط رعشة إلى جانبه، وعندما

سقط صدري في يده اعتراني خوف كبير، كان يراود حلماتي عن طفولتها، وكنت صبية لا تجيد غير الارتعاش، رغم ذلك كان لطيفاً معي.. ولما استعصى عليه إدخال ذكره اكتفى بالملاطفة والتقبيل حتى أدخلني نشوة جديدة نسيت على إثرها كل عذاباتي السابقة.

استمر الأمر لياليَ طويلة، ظل فيها يحاول خلق ألفة بين جسدينا رغم أنه امتلكني بالكامل. صرت أخاف غيابه عند كل ليلة.. وفي ليلة مجنونة تمكن من النيل من عذريتي.. فقدت على إثرها وعيي بالكامل.. عند الصباح صرت عروسا حقيقية.

سألني عما إذا كنت أريد شرب شيء.. فوجدت الأمر ضرورياً.. أشعر وكأنني قمت بمنازلة حقيقية ليلة أمس، بدا وجهي شاحباً.. حضرت لخدمتي الخادمة العجوز التي أحب، قلت له أرسل في طلب الخادمة زبيدة أو فاطمة.. أردت ذلك عنوة.. زبيدة وفاطمة ألحقتا بي العذاب طويلاً عندما كنت برفقتهم، فأرسل في طلبهما معا، قلت للأولى إنني أريد حليبا ساخناً وأمرت الثانية بتجهيز الحمام.. كانت عيونهما أرضاً.. لكنني لم أشرب الحليب ظلت زبيدة واقفة تحمل لأكثر من نصف ساعة.. بعد ذلك قلت لها:

ـ لاشك أن الحليب صار باردا، عاودي تسخينه

استمتعت طوال اليوم بعقابهما.. لقد أصبحت السيدة أيتها الملعونتان.

في المساء وفي جلسة غلفها الشبق الناعم أخبرني أنه سيسافر قريباً للدزاير كي يتابع تجارته هناك.. وعدني بالأثواب المطرزة مرة أخرى.. لقد تأخرت كثيرا الأثواب المطرزة، متى أرمي هذه الأسمال البالية وألف

شعري الطويل بوشاح فيروزي مطرز الحواف بالخيوط الفضية. . شرحت له بالتفاصيل الدقيق كل حاجياتي، في الحقيقة كان ذلك كل ما رأيته عند زينب. ودعني في الصباح الباكر. . قال لي اعتني بنفسك، ولا تهتمي لكلام زينب، ارتميت في أحضانه، قبلته بجنون ودعوت الله أن يعود قريباً.

لم تكن قد مرت دقائق معدودة على رحيله حين فتحت زينب باب غرفتي في توتر واضح. . وجذبتني من على السرير وقالت:

ـ هيا. . عودي حيث الخدم أيتها البدوية العفنة؟

عدت على مضض. . كانت عيون فاطمة وزبيدة تتوعداني بكثير الشر. . لماذا لا تصالحني الأقدار يا ربي. . سألت الخادمة الطيبة في لهفة.

ـ كم يستغرق سفر الباشا آغا عادة؟

ـ ربما يستغرق شهرا. . شهرين وأحيانا ثلاثة أشهر.

توجعت لهذا الصباح البارد، بحثت عن عثمان كي ينقلني إلى غرفته حتى يعود الباشا آغا لكنهم أخبروني أنه ذهب برفقة الباشا آغا حمدان، اسودت الدنيا في وجهي، عاودني اليأس والقنوط. استمر الجميع في قهري. . صارت زينب تطلب مني أن أدلّك قدميها كل مساء. . لطالما بللت قدميها بدموعي لكنها لم تشفق لحالي. . أما المتعجرفة فاطمة فصرت أقوم على خدمتها ليلاً.

بعد شهر ونصف بدأت أعراض الوحم تنهشني. . أخفيت الأمر رغم الإغماءات المتكررة التي داهمتني، قد تلحق بي زينب الأذى لو علمت. . تحملت القيء المرير كما أيامي دون الباشا آغا حمدان.

عاد الباشا آغا حمدان بعد شهرين من القهر، لم يتجرأ أحد ويخبره بما حصل لي. . لمحني عثمان أول الأمر أمام الفرن أومأ لي بالصعود سريعا إلى غرفتي. . كأنه على علم بكل ما حدث لي.

كان فرحا وهو يخرج من الصندوق الكبير أحلى الثياب، وضع على رأسي الوشاح الأزرق الذي طلبت، انتبه لعدم اكتراثي بالثياب التي كنت سأموت عليها.

ـ ما بك حزينة؟

على حين ثورة قهر أخبرته بكل شيء. . قام كما المجنون من أمامي ودخل غرفة زينب، لقد ضربها وسط صراخها الفظيع. . بعد ذلك دخل عثمان غرفتي لاهثا وقال لي:

ـ لقد جنيت على نفسك، ها هي زينب حزمت صناديقها وخيرته بينها وبينك. . إنها سيدة دزيرية ليست ترضى بالضرب والمهان. . أكاد أجزم أنه لن يفرط في والدة بنتيه من أجلك أنت.

رميت الأثواب المطرزة على جنب واستوعبت الخطر الذي سيلحق بي. . كم كنت غبية. . ليتني مسكت فمي وصبرت على عذاباتي لوحدي، فجأة انتابني خوف من العودة إلى أهلي في هذه الأسمال. . ارتديت قفطانا أسود مطرزا. . وسروالا حريريا عريضا. . كما عدلت الوشاح الأزرق على شعري، على الأقل سأعود إلى مدينتي في أبهى حلة، كنت طفلة ليست تتراجع أمام رغباتها الصغيرة. . صار أمر عودتي إلى أهلي محتملا.

ـ ستعودين إلى أهلك في الغد.

التفت كلماته على عنقي كما الخنق، كان يتودد إلى شعري كما لو أنه يطمح في ليلة شبقية أخيرة.. لكنني تمنعت وصرخت في وجهه.

ـ أنا حامل يا حمدان، أنا حامل.

وقع الخبر على هذه الظروف كما السحر، غير كل الاحتمالات لصالحي وصالح حملي الذي سيكون ذكرا، تدخل أخوه فاروق وأصلح الأمر، كفت زينب عن تهديداتها.. وعادت الحياة بوقع الدلال عليّ حتى وضعت ولدي إبراهيم».

* * *

ليس يصلني خبر من الباشكاتب ولا هو يقرع بابي مرة أخرى.. العطار صار يعرف مواعيدي ويحضر لي في كل مرة صندوق مدام.. لم تصلح المدام مزاجي العكر حتى سمعت وقع باب مرتجف.. حتما لن يكون هذا العطف على الباب من قبضة يد يولداش!

وأخيراً عاود الكرة.. يبدو أنه يجيد التريث.. لقد جعلني أتحسس عطفه على الباب وعليّ، فتحت الباب برجفة.. كم فرحت بحضورها.. تعانقنا في وداد.

ـ لقد انتظرتك.. هذا هو وعدك لي، روحي يا الضاوية متهنية سأقضي الصيف كاملاً عندك في الدزاير.. الصيف راهو رايح يروح يا لالا.

ـ الله غالب.. لتو جمعت أنفاسي.

حط رجال الباشا آغا فاروق الذين رافقوها حمولة كبيرة من الخير

وعادوا من حيث أتوا. . سلمت على ابنتها ياسمينة. . خبرتني زينب بعد أن ارتاحت أنها ستتزوج من ابن خالتها الذي يسكن حلق الواد.

ـ إنها بعيدة كيف وافقتم على الزواج

ـ أقدارنا الجميلة تأخذنا إلى البعيد. . اتركيها تهنأ، على الأقل ستكون في حماية ابن أختي.

انتقلت زينب بين الغرف التي تعرف ثم صارت تتنهد:

ـ لقد قضيت ثلاثة أشهر من حياتي في هذا المنزل. . كانت الأجمل على الإطلاق.

لست أعرف ما الذي يجمعني بالضبط مع زينب. . العداوة الطويلة تصير تحالفاً يصنعه الزمن والمصير المشترك. . سألتني عن عائشة والرضيع الذي معها، فقلت لها إنها أنسي في هذه الغربة وذاك ولدها إبراهيم. . ردت على الفور:

ـ من صاحب القلب الرحيم من تزوج بخرساء. . وهل يعيش بينكم.

حزنت كثيراً لما أخبرتها الحكاية. . أوصتني بها خيراً. . لكنها أفزعت طيبتي وقالت:

ـ ليس يأتي الخير من أولاد الحرام. . لا تتركي ذلك الولد يعيش بينكم طويلاً. . ستسقط لعنته عليكم يوما ما؟

جادلتها طويلاً في معنى الولد الحرام. . لقد اغتصبت حين أرادت اللحاق بي. . لم تكن تبتغي رذيلة ما. . كل ما نفعله حرام. . انتهت كل لعناتي ولم يبق غير هذا الرضيع لأضيق به بيننا.

في الصباح ذهبت زينب وابنتها إلى قريبة لهما كي تبدآ في تحضير جهاز العروس. . ألحت كثيراً في ذهابي معها لكنني لم أشأ أن أكون مرافقاً ليس يخصه شيء.

تمتعت بقيلولة طويلة وأنا أعد نفسي ليوم غد حيث وعدتني زينب بأنها ستتدبر أمر ذهابنا إلى البحر. . لم أفتح الباب الذي توالى قرعه طويلاً. . عائشة ليست تنفع في ذلك. . قمت مسرعة كي أفتح الباب لزينب حين تلقف وجهي الذابل جراء النوم الباشكاتب. . ابتلع ريقه قبل أن يكلمني:

ـ لقد حسمت الأمر سأتزوجك.

أبديت عدم اكتراثي بالموضوع وقلت له في عجالة:

ـ لو أنك تؤجل هذا الحديث أسبوعا أو أسبوعين. . عندي ضيوف ولا أريد أن يعلموا بهذا الأمر الآن.

صفقت الباب أيضاً، لكن هذه المرة بتأكيد كبير لمراوغتي الناجحة. . كان قلبي يحترق شوقا له ولجسده المفعم بالرجولة. . أعتقدني لم أمارس شبقاً بعد وفاة زوجي الأول أبدا. . اعترت جسدي سكينة باردة وسط حر هذا الصيف الحارق. . وابتسمت للجدران وللنوافذ وللأبواب.

ـ أخيراً سأتزوج ممّن اختاره قلبي. . وليس يزوجني العبزوزي.

كنت سأسكب شراباً قبل عودة زينب حين جاءني صوت عائشة مبحوحاً ومرتجفاً. . سارعت لغرفتها. . فوجدت ولدها مزرقاً يكاد يختنق. . عرفت على الفور أنه ابتلع شيئاً لا يزال عالقا بحنجرته ضربته على ظهره مرات عديدة حتى سقطت نواة المشمس على الأرض.

صغيرتي زهور هي من فعلت به ذلك. . توقعت أن يحدث منها شيء

كهذا منذ أن صار هذا الرضيع كل تركيزها.. نهرتها طويلا حتى نامت بكاءً.. صرخت في وجه عائشة:

ـ لا تغفلي عليه لا تغفلي..

تجهش عيناها بالبكاء.. وهي تغير له سرواله المبلل.. لاحظت احمرار فخذيه ومؤخرته التي صارت تسيل دماً.. نزعته من يدها ثم دهنت جسده بزيت الزيتون طويلاً.. كانت المرة الأولى التي أحمله بين يديّ، لم تتوقف العقونة عن البكاء.. عرفت من عينيها أنها لا تعرف كيفية الاهتمام به.. ندمت على غفلتي وعاهدت نفسي منذ ذلك اليوم على الاهتمام به.. يكفي أنني أناديه إبراهيم.

عادت زينب فوجدتني أهدهد الصغير وقوفاً.. ضحكت مني ونعتتني بالسذاجة.

ـ يا للطيبة.. أنت لم تفعلي هذا مع إبراهيم.. سبحان الذي غير الأحوال.

أيقظت دمعا كان على وشك.. ابني من لم أحمله ولا سهرت على رعايته يوما.. كان يفعل ذلك الباشا آغا حمدان بنفسه وعند غيابه تقوم الخادمة بذلك بدلا عني.

حملنا العشاء إلى سطح البيت، جلسنا في المنزه حتى ساعة متأخرة، روت لنا زينب محجيات كثيرة وتحويفات جميلة.. أنصت إليها بشوق، ذكرتني بليالي كتونيوس، صرنا نغطي بعضنا بأرجلنا وأيدينا جراء النسمة الباردة التي هبت أول الصباح، لم نكن نريد النزول ولا النوم، أغرقنا حديثها في متعة ليس يوقفها نعاس.. وعندما غفت على وجوهنا رطوبة باردة أيقظتنا زينب وقالت:

ـ هيا انزلوا.. ناموا ساعة أو أقل.. سيحضر زوج أختي إلى هنا كي نذهب إلى أسطاوالي.. إلى البحر.

بعد أقل من دقيقتين وجدت نفسي في المطبخ مفتوحة العينين بالكامل أحضر القهوة، عائشة كذلك بدأت تعجن كسرتها بزيت الزيتون، وياسمينة تقلي بعض البطاطا والفلفل.. وحدها زينب التي ذهبت فعلا للنوم.. لقد زرعت اليقظة في عيوننا بمجرد ذكر اسم أسطاوالي.. تركتنا نتحرق شوقا ونامت..

ـ لماذا لم تقولي هذا من قبل.. كنا حضرنا على الأقل ماذا سنأكل؟؟

لم تجبني، انقلبت في الفراش على الجنب الأخر، رتبنا كل أكلنا في سلة، أيقظت صغيرتي زهور بدلت ملابسها، مشطت لها شعرها، ألبستها خفها نعاسا.. ثم مددتها على الفراش لكي تكن على مهب، الرضيع أيضا أيقظته.. غيرت له سراويله الداخلية، اقتربت مني ياسمين:

ـ هل ستذهب معنا العقونة ورضيعها!

لم أعرف ماذا أجيبها.. وقفت على رأس زينب أنتظر نهوضها.

ـ لن أذهب إذا لم ترافقني..

وصلنا سطاوالي والوقت ضحى.. لاح البحر أمامنا صافياً عذباً كما لم أشاهده في حياتي.. هيأت قريبة زينب المكان.. أفرشت غطاءً رقيقاً كما قام زوجها بنصب ثلاثة أوتاد مكنته من صنع خيمة صغيرة لنا تقينا أشعة الشمس الملتهبة ثم ابتعد ورجاله الثلاث وتركونا لوحدنا..

كانت ياسمينة ابنة زينب الأكثر نزقاً.. ربما لأن عينيها على لون البحر

تماما. . إذ دخلت سريعا الخيمة، نزعت وشاح رأسها الكبير ثم غطت شعرها بمنديل صغير. . ارتدت سروالاً فضفاضاً خفيفاً ربطت ثدييها جيداً بحزام عريض ورمت بسترة ذات أكمام قصيرة من فوق. . وهرعت نحو البحر.

تابعتها بعينين مفقودتين. . فعلت زينب الأمر ذاته. . من الضروري تثبيت الثديين بحزام عريض، نزلت البحر برفقة ابنة أختها، لقد غطاهما البحر بالكامل، ألمح رأسيهما فقط، وعندما تبعتهما نصيرة أخت زينب. . غطسن جميعاً داخله حتى صرت أناديهن. .

ـ زينب. . . ياسمينة. . نصيرة. . . ما اسمها ابنة نصيرة يا ربي. . زينب. . ياسمينة. . نصيرة. . يا طفلة.

وفجأة ظهرن من جديد وأجسادهن تطفو بالكامل على سطح البحر، وصلتني ضحكاتهن وهن يظهرن ويختفين. . كم يبدو هذا رائعاً. . البحر ليس يخيف كما توقعت. . ها هي تطفو فوقه كما سفينة. . لم أكن أعلم أن البشر مثل الخشب ليس يغرقه البحر.

بقيت وحدي وعائشة والرضيع. . صغيرتي زهور كانت أكثر جرأة منا، لقد اقتربت من الشاطئ وجلست تنتظر الموج الذي كان يداعب الرمل في حنان. ما صرت أقوى على هذه الفتنة، لكني لم أحسب حساب الحزام العريض لنهديّ. . هل هذا ضروري فعلا؟؟ تركت الرضيع لعائشة التي سحبتها إلى الشاطئ وهي تكاد تبكي من الخوف ثم دخلت إليهم بملابسي. . تقدمت مني قريبة زينب وقالت: :

ـ البحر يتلف الملابس الجديدة ستصير شهباء.

لم أكترث.. من الذي يمكنه تحمل كل هذا الإغراء.. دخلت بالكامل.. كنت أمشي على الرمل الذي بدأت أتورط عمقه.. أخطو وأخطو.. غمرني بالكامل.. ارتعشت رقبتي وهي تلتفت في الماء.. تغيرت الدنيا من حولي.. شعرت وكأنني في عالم ثانٍ.. عالم لا يحملني فيه قوامي.. أقف.. لابد من الوقوف.. أقف.. أضغط على كاحلي كي ينغرس في الرمل.. وفجأة بدأت بالصراخ.. شعرت أن شيئا ما يجذبني.. لحقت بي زينب، ورطتني العمق حين شربت ماءه المالح الحارق.. فهربت إلى الشاطئ وأنا ألعن زينب ومكرها..

لقد ضحكوا عليّ طويلا.. توقعت أنهم يضحكون على سقوطي المتكرر وعلى جرعات الماء المالح التي قطعت أنفاسي، لم أنتبه إلى حلمتيْ ثدييّ وهما بارزتان للعيان بعد أن تبللت أثوابي، خبأتهما بذراعيّ.. وعدت إلى الموج بشهية أكبر، برودة الماء تنزع عني أدران العمر كله.. بقيت أتحسس أرجلي جيداً.. لن أغوص إلا في المكان الذي تتثبت فيه أرجلي حتى تعبت.

عاد الجميع إلى الشاطئ منهكا.. كان لا يزال زوج قريبة زينب ورجاله يحرسون المكان وبمجرد تأكده من خروجنا شاهدناه ينزع ثيابه بالكامل ويبقى فقط بسروال يصل ركبته، يختبر الشاطئ بعينيه جيدا ثم يركض نحوه بسرعة وهو يقول:

ـ الله أكبر

ارتمى كالسهم المقوس في البحر وسط ضحكات النسوة.. كان يوما جميلا لن أنساه أبدا.. عدنا إلى البيت برفقة حبيبات الرمل التي تحسستها حتى في فرجي.. ذكرتني بتراب الحفر السبع التي علقت

بفرجي أيضا. . تصورت أنني وحدي من أنغص سعادتي فنسيت الأمر واستحممت بالماء البارد. . ظلت وجنتاي لأيام وردية مغرية ثم مالت كهالة من السمرة الساحرة.

واصلت زينب تحضير لوازم عرس ابنتها ثم غادرت بعد أسبوعين أدخلت فيهما البهجة إلى خاطري. . بكيت بصدق وأنا أودعها. . أصرت على ضرورة حضوري عرس ابنتها في الربيع القادم.

[8]

ـ القاضي ولي من لا ولي له.

قلت ذلك لشجرة الياسمين وأنا أنتظر الباشكاتب الذي سيأخذني لتوثيق عقد زواجنا، حاولت أن أفرغ شيئا أخيرا قابعا في آخر الخاطر وما دلتني عليه يد الفرحة.. جاءتني خيالات الزيجات السابقة جميعها، حاولت الإيقاع بي في خلطة ذاكرة مكتنزة المطبات والأوجاع، لكنني مسكتها من أذنها وقلت لها:

ـ لا مقارنة بينكم وبين هذه الزيجة.. هذه المرة سأكون أنا العطر، والنسيم والتحليق والنوارس.. سأكون الضاوية من دون غيمة.

صارت الأغاني تحلق في رأسي..

لـــو ذقــت يــا غــزالــي ... مــا ذقــت مــن هــواك

أو قـد عـلـمـت حـالـي ... ومـا لـقـيـت فـي ذاك

لــجــدت بـالــوصــال ... يــا ســعــده مــن راك

ما يحدث ضروري.. نعم ضروري كي أنقذ كل مواعيد الجنون التي قد تنهال عليّ ضربا ذات صداع، ما يحدث حق أستحقه، نعم..

المساءات التي فصلت ضجرها على وجنتيّ لابد أن تتغافل عني ولو مرة.

يوخزني نهدي.. كأنما يستعد لزيارة قريبة.. يقول لي:

ـ لا تفكري في شيء.. أنا لوحدي أستحق القادم.. لو يعلمون...

* * *

وصلتني عضاته المتتالية كما الموت المفجع.. وكنت من تحت رحمته قطعة ثلج تذوب وتزوي شبقا، كم هي الأجساد التي نختار صائبة الشبق.. تساوي عمر الأحلام التي صبرنا على تغلغلها فينا.. رأيت الوهج في عينيه، بريق صاف يطمئنني على مقدار الصدق المتدفق كما النزيف، عاود الإمساك بي في عطش متقطع الزفرات، كان جسدي لا يزال غضا ممتلئاً ونهداي بشهية تفاح يفتح الريق على السَكر الطويل، شعري الأسود الطويل حكاية حرير تشكو نعومتها للأيادي المرتجفة، رأيتني عذراء لم يمسسها رجل في وهج عينيه اللتين لم تشبعاني.. وعندما خارت قوانا كان النوم رائقاً كما لم يكن أبداً.

في الصباح ضحكت طويلاً لأنني وجدت نفسي عارية بلا أثواب.. لم يحدث هذا مذ زمن.. سحبت الغطاء على رأسي مخافة أن يغيب هذا العري الجميل.. لم نغادر الغرفة طوال ثلاثة أيام كانت إجازته من عمله كهدية زواج قدمها له حاكم البلاد.

بعد يوم عمله الأول عاد محملاً بالهدايا، يقول إنها هدايا الحاشية الحاكمة، هذا سجاد فارسي أصيل هدية الخزناجي، وهذا طشت وإبريق نحاسي يحوى على نقوش بديعة قدمه له وكيل الحرج، وتلك كؤوس

زجاجية مرصعة بالأحجار الكريمة من عند الباش سيار، أما الهدايا الصغيرة فلم أكن قد فتحتها بعد. . تطاول كبريائي بعد رؤية كل هذا. . عرفت أنني أعيش أزهى أيامي.

المطر يغسل أحجار القصبة في الخارج. . لأول مرة لا يغسل مطر الخارج سقوف الخاطر، لأول مرة لا تصل الغيمات إلى ربيع الباشكاتب، يمطرني بالهدايا كل مساء. . يقول إنها الغنائم التي تصل القصر من عند رياس البحر. . أرسم عالماً من الحرير. . قصرا يموج في الخيوط المطرزة، أخبر العقونة كل يوم بذلك.

ـ سنسكن القصور قريبا. .

تهز رأسها بالإيجاب، كمن يساير مخبولاً.

ـ والله. . سنسكن القصور، الباشكاتب سيشتري لنا جناناً في التلاوملي.

نظرات العقونة باهتة، بعيدة عن هذه الزوايا، هي تحملق في شيء بعيد، كأنما تريد في كل مرة التهرب مني، ألمحها بعد الظهر عندما أفيق، تقوم ببعض أعمال المنزل وتغيب. . تدخل غرفة كتونيوس ولا تخرج، أسمع ليلا بكاء رضيعها، أفكر في القيام، لكن ذراعا الباشكاتب تحيط بخصري، أهملتها. . أهملت رضيعها، أهملت زهور، أريد بعض الحب لأيام فقط ثم سأعود لكل شيء.

لا أعرف لماذا عليّ أن ألتهم الحب على عجل، لماذا أخاف من عيون الوجع أن تحدق بحبي الجديد، أمسك بالشوق النازل كما العبق على قلبي، وأخرج لملاقاته.

يعود الباشكاتب كل مساء في الوقت ذاته بعد صلاة المغرب، يعود محملاً. . يحضر الفستق والحلقوم وحلويات أخرى لم أر مثلها في حياتي، لم يكن يمل من جسدي، في الصباح نستحم معاً. . لا ينسى أبدا أن يحمل بعض زهرات الياسمين.

يضعها ما بين نهديّ. . ويقول:

ـ هذا المضيق أهم من مضيقات البحار كلها.

ـ لماذا تسمعني كلاما لا أفهمه، هل لأنك تقرأ وتكتب.

أمسك كل مرة إبهامه الملطخ بالحبر، أدخله فمي، السبابة أيضا، أظل ألعقها بلساني كما أمنية تريد أن تعرف ماذا كتب هذا السيد، يعاود الحبر الحضور كل ليلة في طقس سريرنا المشتعل.

ـ لو أنك تحضر دواة وريشة، حتى تعلمني الكتابة.

ـ وماذا ستكتبين.

ـ سأكتب كل ما تكتبه أنت.

ـ أه. . ستكتبين الرسائل لمقاطعات البلاد وتدوّنين مقدار الغنائم وترسلين مراسيل الحرب والسلام للدول. .

ـ لا أعرف. . سأتعلم الكتابة أولا ثم نرى هل يمكنني ذلك أم لا.

وعدني أن يعلمني الكتابة والقراءة ذات عري، لم أخذ بكلامه. . وعود العراء لا تلبس حقيقتها.

لكنه عاد ذات مساء برفقة قراطيس ودواة وريشة كبيرة. . كنت في حجره عندما سألني عن أول اسم أريد كتابته قلت على الفور:

ـ إبراهيم

أعجني انحناؤه العجيب، بقيت طوال الوقت أنسخه على كامل القراطيس التي معي. . حتى عند تربة الياسمينة. . إبراهيم. . قال لي كلها حروف متراصة. . لابد للحروف أن تلتصق حتى تخلق الكلمات. . أنا أيضا لابد أن ألتصق بك حتى أخلق يا حبيبي.

بقيت لأيام لا أكتب غير كلمة إبراهيم. . وعندما أتقاطع مع وجه الرضيع أشد على الحروف. .

ـ أنا أكتب اسم إبراهيم. . صغيري إبراهيم الذي ضاع مني ولست أنت.

ولكن. . لست أفهم لِمَ يلتقي وجه إبراهيم ابني بهذا الطفل الذي يكبر بسرعة ويصير ممتلئاً ورائعاً؟. . ليس هناك أدنى شبه بينهما عدا الاسم. . آه منه شبه الخاطر. . وحده يورطنا الوجوه المختلفة حتى تكاد تكون واحدة متطابقة.

تعلمت الحروف بسرعة. . صرت أفك الكلمات والجمل في وقت قياسي. . قلت للباشكاتب أن يحضر لي بعض المراسيل التي تصله كي أفك حروفها أمامه على أن يعيدها في اليوم الموالي إلى القصر.

في المساء جلب لي رسالة وقال:

تفضلي يا سيدتي الحاكمة هذه آخر رسالة وصلت اليوم من الباب العالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

٢ فيفري ١٨٠١

من القبطان باشا القسطنطيني إلى حاكم الجزائر الداي مصطفى

اعلم أنني أصدرت أوامر إلى موانئ الخلافة كافة، من أجل طرد كل أعوانكم كما أصدرت الأمر بعدم تزويد الإيالات بأي جندي وعدم السماح لها بالقيام بأي تجنيد وبأسر كل سفينة تابعة لها قد تظهر في أحد موانئ البحر الأبيض المتوسط وسجن قائدها وطاقمها. .

بقيت طوال الليل وأنا أفك حروفها وبعد أن تعبت دخلت في صدره وقلت:

ـ يبدو أنه لا أحد يفك الحروف والطلاسم غير جسدك.

أحبه. . نعم أحبه جدا. . أشتهيه مع كل نفس، أتخيله نورسا أبيض. . جناحاه تراقص الهواء كي أتنفسه وحدي، حتى عندما يذهب إلى عمله في قصر الحاكم أصعد إلى المنزه وأفتش عنه في أسراب النوارس التي تروح وتجيء فوق سطوح القصبة.

ظلت الرسالة تسكنني، نهضت من سريري وقلت له

ـ يمكنني قراءتها اسمع. .

تهجأتها بصعوبة بالغة وكان في كل مرة يصحح لي الكلمة دون أن يرى الرسالة فتعجبت لذلك، وبعد محاولات عديدة قرأتها بسلاسة. . فصرخ في وجهي:

ـ هيا أطفئي الفتيل ونامي

لكنني ما كنت لأنام وأنا لا افهم شيئا من الرسالة. . عانقته في إغواء وسألته عن فحوى الرسالة. . قال لي بعد أن ثمل من شفتيّ:

ـ إن الأمور تزداد سوءً بين الجزائر والباب العالي من جانب وبين فرنسا من جانب أخر. .

لقد قامت البحرية الجزائرية بالاستيلاء على عدد كبير من السفن الفرنسية وتعرض الضباط الفرنسيون ممن فيها إلى النهب والتنكيل في مرسى تونس مما جعل بونابرت يعلن الحرب على الجزائر. . لكن هذا النهب جاء بعد أوامر رسمية صادرة عن الباب العالي الذي اغتاظ كثيراً من الحملة الفرنسية الموجهة لمصر، ولم يأمر بها حاكم البلاد مصطفى باشا. . لكن مصطفى باشا كف عن ذلك لما بين فرنسا والجزائر من تعاملات تجارية. . سيما الديون المستحقة على فرنسا فغضب الباب العالي وأرسل الخطاب الذي تمكنت من فك حروفه قبل قليل.

أطفأت الفتيل وتوسدت كتفه، لم أستطع النوم وأنا أفكر في البلاد البعيدة، لطالما أحببت البلاد البعيدة، تعلمت ذلك مع نعاجي في روابي عزيز. . كانت عيناي تتطلعان دوما إلى الأفق. . لو كان الأمر بيدي لبقيت طوال عمري مع تلك النعاج، لا نقوم بشيء سوى الركض خلف البعيد. . في طفولتي الأولى كنت أتوقع أن النعاج قد تهديني إلى مكان أبي. . ظلت أمي تقول إن والدي ذهب لعبادة الله في البلاد البعيدة. . في بعض المرات كنت أبكي وأنا أهش على نعاجي كي تتعجل حتى ألتقي أبي. . لم ألتق أبي، لكنني لم أفقد ثقتي في هذا البعيد. . ظل البعيد أمامي أملاً واسعاً جدا.

عدت صغيرة مع هذه الرسالة. . صغيرة تريد تخطي البعيد مرة أخرى. . لست أبحث عن أبي. . صار يتمي شيخا هرما، ربما أنا أبحث عن إبراهيم. . وقد أبحث عني. . حتى عندما تكون السعادة بين أيدينا نظل نبحث عمّن سيقول لنا إنها ستبقى.

[9]

يدنو كتونيوس في كل مرة من شجرة الياسمين ويبسم لي. . يخرج من صباح مالطي ويحكي لي حكاياته الزاهية:

ـ تفتح مالطا عيونها كل يوم على البحر، تقول أولاً صباح الخير للنوارس، ثم تجمع من الشرفات كل عطور الشوق، وتنتظر السفن القادمة من كل الدنيا.

أفتقده كثيراً، نحن يا كتونيوس نوارس بحر. . تضيع عند عطر كل شرفة. . افتقد أمي. . العبزوزي. . أفتقد براري عزيز الواسعة، أشتاقهم. . لكنني الآن أحسن حالا، صرت زوجة الباشكاتب وعطري ثمين لا يزال يبهر نسوة الحمام.

أحياناً أنسى كل عذاباتي الماضية، لقد عالجني هذا الرجل كما ينبغي. . صرت أنتظر المساء حتى تلفني عيناه، حتى تشعلني حرائق شوقه، أحب لون عينيه الهارب بكل الألوان. . أحيانا أجزم أنهما زرقاوان وحتى تفاجآني الخضرة في الوسط، ثم ما يلبث الرمادي بقطف محيطها. . طوله الفارغ يسكنني، يشعرني وكأنني وردة ينحني دوما لقطافها. . ماذا كنت سأفعل من دونه. .

لم أسأله يوماً عن ماضيه. . كل الذي أعرفه عنه أنه من الأنضول، ولد

في تونس وهو الآن إلى جانب الحاكم مصطفى باشا، لا أعرف أيضا لم لَم يْتزوج من قبل. . هو لا يتكلم إلا عن الحروب ومشاكل القصر.

القصر سينسى مشاكله قليلاً. . الأسبوع القادم حفل زواج الأمير إبراهيم ابن الحاكم مصطفى باشا. . سأحضر حفلة العرس. . لابد أن أكون الأبهى أنا زوجة الباشكاتب. .

ـ لو تعرفي المشاكل التي سبقت إعلان هذا الزواج. . الأمير سيتزوج سبية مالطية. .

مالطا أيضا. . أه من وجهك يا كتونيوس. . جعلت رأس البشكاتب في حجري وصرت أمسح على شعره وأطالب بالمزيد. . تعجبني حكايات القصر. . أصير أمامها طفلة صغيرة تنصت بشوق إلى حكايا الأميرات.

ـ لا أعرف كيف اقتنعت أخيرا زوجة الحاكم بهذا الزواج، لقد ترك الأمير الدزاير وبقي في اسطنبول سنة كاملة بسبب خلافه مع أمه حول أمر زواجه. . السبيّة المالطية كانت من ضمن الخدم الذين يخدمون في القصر، وقد هام الأمير إبراهيم في حبها طويلاً، يقولون إنها بارعة الجمال وعنيدة جدا، لقد قام الحاكم من قبل بتزويجها أحدَ خدمه، لكنها امتنعت عن الأكل لأكثر من عشرين يوما حتى طلقها من دون أن ينال منها. .

ـ لعلها عاشقة.

ـ نعم عاشقة، لكنها ستتعذب.

ـ لِمَ؟

ـ زوجة الحاكم ليست سهلة، هي تحاول استرجاع ولدها لا

غير، يا ضاوية لا شأن لنا بهم.. عليك فقط أن تكوني جميلة، لقد طلبت من الصياغ[1] اسحاق أن يصنع لك حليا يناسب الأميرات فقال لي إنه سيحضر لك غدا خيط الروح.

ـ خيط الروح

ـ لا أعرف.. هذا اليهودي بارع لا شك أن خيط الروح حلي جميل.

خيط الروح لا يتركني أنام.. كيف هو؟ لماذا يسمى خيط الروح.. الاسم وحده يجعلني أفتح عينيّ أكثر.. مثير جدا هذا الاسم.. يشق الروح ويخيط غبنها.. آه يا باشكاتب.. لو تعرف حجم الجروح التي بروحي.. كيف عرفت أنني احتاج خيط الروح حتى أخيطها. سمع المطر خاطري.. خريف البحر مخيف.. التصقت بروحه ونمت. باتت تمطر طوال الليل.

في الصباح الباكر نهضنا على صوت الرعد المدوي.. خرج الباشكاتب وصار يكنس وسط الدار إلى جانب العقونة. لقد غمرت المياه بيتنا الصغير، ارتمت زهور في صدري وبدأت بالبكاء، لم أشاهد في حياتي وابل مطر كهذا.. كأنها عيون من السماء، فتح الباشكاتب الباب الخارجي وصار يدفع بالمياه إلى الخارج.. سلالم القصبة صارت وكأنها شلالات معلقة، كل الرجال يحرسون بيوتهم من المياه.. إنها الحملة[2].

---

(١) صانع المجوهرات.

(٢) بمعنى الفيضان الصغير نسبياً.

دخل الباشكاتب الغرفة ليغير ملابسه.. لقد تبلل بالكامل.

ـ لم أقم بهذا العمل في حياتي..

قال هذا وهو يصرخ:

ـ هذا ليس صحيحا.. لابد لنا من خادم، لا لا.. لابد أن نرحل في أقرب وقت.. سأتدبر أمر المال المتبقي وأشتري جنان تلاوملي.. لابد أن أفعل ذلك.. أريد لأولادي حياة كريمة.. أنا لم أقم بهذه الأعمال في حياتي.

ـ أولادك..؟؟

ضممت زهور إلى صدري.. حاولت أن أدخلها فيه..

أولادك.. ربما لا يمكنني الإنجاب أيها الباشكاتب.. نسيت أمر الحملة، لم أتحرك من مكاني ولم أقدم يد العون لهم. تذكرت الحفر السبع وعزيز.. وولدي إبراهيم.. صرت أنا المطر.. والحملة قلبي الممتلئ.

أشرقت الشمس بعد كل ذلك الوابل، اعتقدت أن ذلك لن يكون، هل يعقل أن تتبدل سماء هذه المدينة بهذه الطريقة القاطعة.. ألا تتدرج في ظواهرها الطبيعية.. لماذا هي سريعة هكذا؟ وتنقلب من النقيض إلى النقيض.. فيها شيء من السحر.. وربما من الجنون.. مجنونة سماء الدزاير والله مجنونة.

صرت ألمم السقيفة من نوبة بكائها.. الياسمينة ارتوت تماما، الخيامة صارت بركة ماء.. طلبت من العقونة أن تذهب وترتاح.. لقد تعبت كثيرا.. كما أنها صارت تسعل، نشفت لها شعرها ساعدتها في تغير ملابسها.

ـ هيا نامي قليلا سوف تصابين بنزلة برد.

اعتقدت أيضا أن الباشكاتب سيعود للنوم، من أين أتى بالقوة التي جعلته يذهب للقصر بعد كل ذلك العناء في إخراج المياه.. كان ساخطا، متذمرا، يتوعدني بالرحيل القريب.

نعم أريد العيش في جنان كبير، لكني أخاف ذلك، هذا البيت هو نجدتي الأولى ومن الصعب أن أغادر عتبتها، تذكرت كلمة «أولادي».. ماذا أفعل؟ لماذا يا أمي.. لماذا فعلت بي كل هذا؟..

من يدري قد تستطيع فك رباط السحر.. أخبرني مرة بإمكانية ذلك، صار الأمر واضحا في رأسي، لابد أن أذهب إلى عزيز.. أرى أهلي وأفك الرباط، أريد طفلا من الباشكاتب، سوف استأذنه في أسبوع واحد أزور فيه أهلي وأفك الرباط ثم أعود.

جميلة الجدران الحجرية عندما تتبلل، تصير لها رائحة مغايرة.. قطعا لا يمكنني التكهن بمذاقها، لكنها باردة على العين، نظفت البيت كاملا بمفردي.. صعدت للمنزه الذي تجمعت فيه المياه الكثيرة، نظفته أيضا.. رأيت النوارس.. ترى أين تختبئ النوارس عند نزول المطر؟ هي لا تصنع الأعشاش.. تعيش بين الصخور.. ظلت تحلق وتحلق.. طبعا لا تزال تراقص الهواء.. يدخل رئتي هذه المرة مبللا منعشا..

سمعت إبراهيم يبكي.. سارعت إليه، كانت العقونة إلى جانبه غارقة في النوم.. تصدر أنينا خفيفا.. وضعت يدي على جبهتها فلسعتني حرارتها. حاولت إيقاظها.. فتعالى أنينها أكثر.

بقيت طوال النهار إلى جانبها.. صارت ترتعش.. أرغمتها على شرب

الزعتر الساخن، دثرتها بأكثر من لحاف من دون فائدة، ظلت تتلوى في فراشها وترتعش.

تأخر الباشكاتب اليوم، تأخر كثيراً.. المسكينة ماذا أفعل لها يا ربي، خارت قواها بالكامل وأصبحت كما ليمونة صفراء ذابلة، ربما معه حق نحتاج بالفعل إلى خادم، لو كان هناك خادم لأرسلت في طلبنه، لا يمكنني أن أتركها هكذا..

بقيت أروح وأجيء، لم أفلح في محاولة إطعامها.. أخافني ارتعاشها، دثرتها أكثر، أخاف هذه الحمى الباردة.. أخافها جدا.

هدهدت إبراهيم وقوفاً حتى نام ولم يصل الباشكاتب، رويت لزهور حكايات بسال، ودعة مشتت السبعة وأيضا لونجة بنت الغول[1] ولم يتوقف ارتعاش العقونة.. وعندما تعبت أحضرت وسادة ووضعت رأسي أمام أنينها تماما.. سحبت يدها وشددت عليها، لم أتمكن من فعل شيء أخر.

استفقت على يد الباشكاتب تحط عند جبيني، لم تشأ يقظتي أن تنظر إليه، سارعت إلى عيني العقونة.. هل هما مغمضتان؟ هل ابتعدت عنهما الرعشة؟ هل غادرتهما الحمى الباردة؟

ـ آه يا حبيبي.. هي مريضة جدا.. كم كنت بحاجتك اليوم.

تحسس الباشكاتب حرارتها فوجدها طبيعية، نزع عنها الأغطية المتراكمة وقال لي:

ـ لقد أتعبها البلل.. أتركيها تَنَمْ سوف تصبح بخير.

---

(١) حكايات من التراث الشعبي تحكى للأطفال.

ـ ولكن ألا تحتاج إلى علاج.

ـ حرارتها عادية.. أهم علاج الآن أن ترتاح.. هيا اتركيها.

تركت الفتيل مشتعلا، سأعود وأنام بقربها هذه الليلة.

جلست برفقته على طاولة العشاء، لقد تأخر كثيراً هذه الليلة.

ـ خير إن شاء الله، لماذا تأخرت اليوم، أم إنه حظ المسكينة؟ لو رأيت جسدها وهو يرتعش بالكامل، نزلت عليها الحمى الباردة كالصاعقة.

ـ ربي يشفيها..

لم يأكل كثيراً.. استلقى على فراشه في ضجر، رتبت الصحون وحملتها إلى الخيامة، صار يستعجلني.. عرجت على غرفة العقونة.. تبدو الآن أحسن حالا، تنام عميقا.. كم أحبها.

نزعت المحرمة عن شعري، سرحته في غنج وارتميت في صدره..

ـ لقد أتت الحملة على دار المحصول[1] وتتبلل بالكامل، تم نقله اليوم إلى خميس الخشنة، اضطررنا إلى حساب ما تلف وما استطعنا إنقاذه، لكنني لم أنس.. ها هو خيط الروح.

كم تنسى الروح روحها، لقد نسيته تماما. أخذت الحملة تفكيري بالكامل، العقونة أيضا جعلتني أشفق عليها وهي تتخبط وسط رعشة موجعة، مسكت الحلي في يدي، يا الله من خيط الروح هذا.. وضعته على رقبتي لكن الباشكاتب خطفه من يدي وقال لي:

(١) المحصول هو القمح والشعير.

ـ لا لا يوضع في الرقبة، عليك بوضعه هكذا على الجنين بمساعدة المحرمة.. لماذا نزعت محرمتك؟

كان عبارة عن سلسلة ذهبية تتوسطها ثلاث دوائر منقوشة ومرصعة بالأحجار، الدائرة الوسطى أكبر حجما تتدلى منها كذلك ثلاث دوائر صغرى، وضعه على جبيني وثبته بماسك شعر خاص.. اعتراني شعور مغاير وأنا أتحسس الدوائر الصغرى وهي تتحرك كلما تحركت..

ـ من الذي سماها خيط الروح؟

ـ لا أدري.. ربما يعرف ذلك الصايغ إسحاق.. هذا الحلي معروف هنا في الدزائر فقط.. لم أر مثله في تركيا.

أين هي الروح..؟ هذا خيطها فقط.. هل يمكنها أن تتدلى على الجبين؟

ـ روحي معك

قلت هذا للباشكاتب فجذب روحي بالكامل.

* * *

استعادت العقونة سحنتها، حملتُ إليها فطور الصباح، صارت ترمقني بنظرة جديدة.. العائد من المرض ينظر دائما بعيون جديدة.. أول ما يقضي عليه المرض هو زوايا الرؤية.

ـ ماذا هناك..

تجيبني ابتساما.. والله أنا أيضا يا عائشة أراك في كل مرة بزاوية جديدة.. أنت سندي هنا، وحدتي وأنسي، كلامي وسكوتي، لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دون كلام عينيك هذا؟.

جعلت رأسها في حجري وبدأت بالحديث.

ـ أيتها العقونة اسمعي:

«امتعضت زينب لمولودي الذكر، تحققت أنها ضيعت منزلتها الرفيعة، ليس ينفع نسب وجاه المرأة عندما تكون كل بطونها إناثا، الرجل يحبذ المرأة التي تلد ذكورا، ولن يشعر بوجوده إلا عندما يرزق بطفل، فرحة الباشا آغا حمدان لا توصف وهو يمسك بأول أولاده الذكور بعد بنتين.. بعد شهور صارت زينب حبلى للمرة الثالثة، هي حيلتها الأخيرة في محاولة التساوي بيني وبينها، باغتها في بهو البيت وهي تتمايل بسبب انتفاخ بطنها الذي بدا كبيراً وقلت لها:

ـ حتى ولو كان في بطنك توأم ذكور، ولدي هو البكر.

تركتها في صراخها وجلست وسط الدار أقسم الحلقومة على مهل، وأنا أبالغ في أصوات تلذذي بطعمها، ولسوء حظها أنجبت بنتا ثالثة. فتراجعت حظوظها دفعة واحدة غير أن الباشا حمدان صار عادلاً في مبيته.. ينام ليلة عندها وليلة عندي..

بعد فترة بسيطة قمنا بختان إبراهيم، كان ذلك أكبر أفراح عمري، أنا لم أقم عرسا، لقد حملني الباشا حمدان من عند أهلي على حين غفلة، أذكر أن أمي جمعت صبايا المدينة تلك الليلة ووضعت في يدي قرصاً من الحنة للفأل فقط. لقد سمعت البارود لأول مرة في حياتي، كان الباشا آغا فاروق يحمل بندقيته المرصعة بالفضة، ويتمايل بها من على حصانه الأصهب.

صار صغيري في عمر الأربع سنوات، وغياب والده لا يعني لي

العذاب أبدا، سيدة المنزل أنا زينب لم تعد تبرح غرفتها، ولم تعد تجادلني، لكن غياب الباشا آغا حمدان طال هذه المرة.

وذات يوم عاد زوجي نائماً على عربة تجرها البغال، قال الباشا آغا فاروق،

ـ احرصوا على الاقتراب منه، لقد أصيب بداء الطاعون الذي داهم البلاد في الدزاير.

سقطت السماء على رأسي حينها، كيف لا يمكنني الاقتراب منه، كيف نضع الباشا آغا حمدان في حجرة مظلمة أمام الإسطبل. .

ـ ما بك هذا الباشا آغا حمدان، كيف يهون عليك. . كيف؟

يصرخ فاروق في وجهي:

ـ هل تريدين أن نموت جميعاً. . سوف لن يكمل الليلة. . بايلك التيطري رفض دخوله أصلا، ولولا رغبتي في موته بيننا لما جئت به إلى هنا.

بقيت أمام الحجرة المظلمة لا أصدق ذبول وجهه وهو يصارع الموت وحيداً، الجميع هرب من المكان، ومن الطاعون، وحدي والخادمة الكبيرة لا نتوقف على البكاء، حاول الباشا آغا إقناعنا بالخلود للنوم قليلاً، غير أنه قهر مستيقظ، جلسنا أرضاً عند مدخل الغرفة، لم يكن يفتح عينيه على الإطلاق وبينما خيوط الصباح تنزلق بهدوء من ظلام الليلة راح يصدر صوتا غائرا في الضعف.

ـ إبراهيم. . إبراهيم

شدتني الخادمة الكبيرة من كتفي، وقالت لي:

ـ قومي وأحضري إبراهيم. . والده يريد أن يراه.

حملت صغيري من نومه، وهرعت إلى الأسفل، لم تكن الخادمة الكبيرة عند مدخل الغرفة، صارت إلى جانب الباشا آغا حمدان. سمعتها تتمتم:

ـ لا اله إلا الله، محمد رسول الله.

جعلت إبراهيم واقفا على الأرض وهو نائم. . لم يتماسك طوله لكنني ركضت إلى حمدان، صارت الخادمة الكبيرة تبعدني بكلتا يديها وأنا أصرخ وأصرخ حتى جاء الجميع، صاروا يخرجوننا بالقوة، وحدها الخادمة لم تبرح مكانها، ظلت إلى جانبه حتى الدفن.

سلم حمدان روحه من دون أن يرى صغيره، سلمت بدوري كل مسببات سعادتي. بعد أيام فارقت الخادمة الكبيرة الحياة أيضا. . ها هم الخدم يحرقون تلك الغرفة. . أتطلع إلى ألسنة اللهب وأتشبث بوشاحي المعتم لعلني أربط أحزاني إليّ، أبدا لن يستقر الحزن في قلب أحدهم مثلي سينهش مني الروح.

لقد دخلت هذا البيت وعمري ثلاث عشرة سنة وخرجت منه وأنا لم أكمل بعد التاسعة عشر، كم كان ذلك الترمل فظيعا، أسندت رأسي للريح، شعرت بضياع كل شيء دفعة واحدة حتى زينب كادت تنتهي حزناً عليه، لم أتحمل وجودي هناك، قررت الذهاب إلى أهلي، ربما كان عليّ أن أدرك منذ البداية أنني لا أنفع في هذه البيوت الكبيرة، يقول العبزوزي:

ـ حياة البيوت الكبيرة حياة الهموم الكبيرة.

عدت إلى بيت والدتي الصغير بعد أن رفض فاروق ذهاب إبراهيم معي، ربما اقتنعت بذلك من الأفضل له البقاء في بيت والده، هو ابن الباشا آغا، أما أنا فلم يكن والدي رحمة الله عليه يرجو من هذه الدنيا سوى الزهد وتسبيح الخالق في الفيافي البعيدة. . لم أتصور أن فقدان الزوج مثل اليتم تماماً.

انتقلت في البداية إلى العيش مع أمي وزوجها المقرف، لقد أخذ مني كل نقودي، حتى ملابسي المطرزة صار يسرقها ويبيعها في سوق السبت، ذقت ذرعاً بتصرفاته، لجأت إلى العبزوزي الذي فتح لي بابه، لكن كنته ظلت تحوم على رأسي، تقول زوجة العبزوزي الطيبة.

ـ إنها غيرة نساء، لا تهتمي لأمرها، كما لا تنسي أن حسان كاد أن يصير زوجك لولا ذلك الباشا آغا من خطفك خطفاً.

ظلت زوجة العبزوزي تشكو طباع كنتها الحادة وعجرفتها المستمرة إلى حين فاتحتني في أمر زواجي من حسان، كنت أشعر بنظرات حسان المختلفة نحوي، لكنني لم أعتقد أنه سيطلب في زواجي وبهذه السرعة.

كنت على حافة انتهاء ما، لم أشارك أحد تخمينه، لم أوافق ولم أرفض، كنت مريضة وموغلة في الحزن، لم أكن تعافيت بعد حتى أساير هذه الخطط من حولي، وعندما علمت كنة العبزوزي بالخطة التي تحوم على رأسها، ترصدتني وأنا في الغرفة البرانية وقامت بضربي حتى اكتسى وجهي بالدم، لم أتمكن من الدفاع عن نفسي، كنت منهارة بالكامل ولا قوة لي على صد سخطها، أخرجتني من بيتها على مرأى من جميع أهل المدينة.

تعثرت طويلاً على طول الطريق التي لم أعرف أين ستأخذني، صرت أمام الجميع غاوية نزلت ببيت العبزوزي كي توقع ابنه حسان في شباكها، بدأ الأطفال بالركض ورائي بعد أن حرضتهم نسوة المدينة، صاروا يرموني بالحجارة وأنا في غفلة تامة عما يحدث حولي، حجاب الحزن كثيف الضياع وثقيل الخطوات.

قادتني أقدامي إلى جامع المدينة، غسلت دمائي بصبر وتوضأت وقبعت في جزء معزول من الجامع.

لم أكن قد صليت قبل ذلك، ولا أعرف كيف يكون ذلك، لكنني سجدت طويلاً حتى شعرت براحة تملأ جسدي، قال لي العبزوزي الذي لحقني أن هذا المكان مخصص للاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان.

أحضر لي بعض الطعام وجلس قبالتي:

ـ والدك كان هكذا، يسجد حتى ينتهي.

ـ كيف يسجد حتى ينتهي ويتركني لكل هذا العذاب؟

ـ انه هائم في الصحراء، جاءني ذات فجر وقال: سوف أرحل يا العبزوزي إلى الصحراء، حيث الله قريب لا أظنني سأعود قبل لقائه، اعتني بطفلتي، أما زوجتي فاعلم أنني أعتقتها.

بقيت في ذلك المعتكف ليالي طَويلة رغم إلحاح العبزوزي الشديد بضرورة العودة إلي بيته، أخبرني أن حسان قد أدب زوجته عن فعلتها. كما نقل لي قلق أمي عني.

ـ أنا في سلام كبير يا العبزوزي، .

ما أجمل أن لا يتحدث المرء إلى أحد، أن يحاول الدخول إلى عمقه ويقبض على روحه، ثم يضعها قبالته ويفهم منها أين الوجع؟ تقول روحي أنها متعبة جدا، لقد كان لونها شاحبا وقواها خائرة، تخبرني أنها ضاقت ذرعاً من كل الذي حل بها، لماذا عليها أن تتهيأ بعد كل فرح لحزن أكيد، تقول أيضاً، أنها تنتظر ما هو أعظم، لأن الأرواح تعرف قدرها.

تأملت ذلك الفتيل طويلاً، كانت النار تنطلق إلى فوق، كأنما تريد الصعود، روحي كانت كذلك، وربما لم تكن روحي، ربما تقمصت وهج الفتيل وصراعه كي لا ينكسر عن مبتغاه العلوي. لم ينغص سكينتي غير هرولة العبزوزي، جاء ليخبرني أن الباشا آغا فاروق هنا في عزيز وأنه حمل كثير الخير بمناسبة عاشوراء.

مشيت خلفه وأنا منهارة وتعيسة، لم أستطع فهم مكمن الوجع، لعنت الباشا آغات، تمنيت لو أنني لم أقاطع طريقهم يوماً.

انطلق إبراهيم ولدي نحوي، ضممته إلى صدري وبكيت، لم تكن تهمني تلك العطايا بقدر وجه ولدي الذي صار وسيما، يحمل كل تقاسيم والده.

بعد أن غادر الباشا آغا وولدي إبراهيم قررت أن أصير وحشاً ولن أترك زوج أمي يأخذ مني أموالي، حتى تلك العطايا من قمح وشعير وسكر وشموع لم أتركه يتصرف فيهاً، إنها ذخيرتي، بعد تلك الحادثة جاء العبزوزي وأخبرني أن حمزة بن شواش يريد الزواج مني وهو يسكن في فاستن[١]، لم يعجبني اقتراح العبزوزي، بن الشواش هذا راع؟؟ أردت

(١) قرية صغيرة قريبة من مدينة عزيز.

بناء بيت صغير من الطوب أمام بيت أمي، وفعلاً بدأنا بالأمر برفقة العبزوزي، لكن زوج أمي قاطع طريق البنائين وبدأ بالصراخ:

ـ تريد أن تبني وكراً للرذيلة بالقرب من بيتي.. والله سيكون ذلك على جثتي.

زوجة لحسن هي أول من أشعلت هذه الفكرة في رؤوس أهل المدينة، وهكذا صارت صورتي سيئة في كامل المدينة حتى اقترحت عليّ أمي الذهاب عند ابنه عمها سعدة، قالت:

ـ لقد عاشت بوهران زمنا، ثم أن والدتها الاسبانية قد جعلت منها امرأة قوية يخافها الرجال، اذهبي إليها قد تحميك.. لا مكان لك هنا.

ذهبت إلى سعدة التي استقبلتني بكرم، وقالت: أنها تشفق على حالي بعد وفاة زوجي وبعد ثلاث أيام طالبتني بالرحيل لأن بيتها يحوى على عزاب، صارت تخاف هي أيضا من ألسنة الناس، كرهت نفسي على هذا الحظ، وهذا الوجه الجميل من يجلب لي الشقاء.

ـ ظننت أني سأبقى عندك حتى يفك الله كربي.

ـ في هذه الحال سأؤجر لك غرفة من غرفي وتدفعين لي إيجارا سنويا مقداره عشرين موزونة.. أعرف انك تملكين المال..

قبلت عرضها على الفور وأخرجت النقود التي قدمها لي الآغا فاروق وأعطيتها الحساب المعلوم، كنت أول امرأة في مدينتي تستأجر غرفة وربما لم يسبقني إلى ذلك رجل، ساعدني أولادها في نقل ذخيرتي التي قدمها لي الباشا آغا فاروق، كاد زوج أمي يموت غيظا ظل يصرخ وأنا أبتعد عن بيته.

ـ إياك أن تفكري ولو في خيالك في العودة إلا هذا البيت أيتها الرخيصة.

بدأت عمراً جديداً في ذلك البيت على الرغم من زوجات أبنائها اللواتي بدأن يتربصن ويتجسسن على كامل حركاتي، صرت لا أخرج من غرفتي إلا نادراً، عرفت أنه يتوجب عليّ تدبر أمري فطلبت من العبزوزي أن يشتري لي بقرة فقال لي:

ـ لو كان لي خاطر عندك يا ابنتي تزوجي بوزيد بن شواش، هو من فاستن وسيقبل العيش معك في الغرفة التي تقولين أنك اشتريتها.

ـ لقد أجرتها يا العبزوزي، أجرتها.

ـ لسنا نفعل هذا، نحن كلما احتجنا إلى منازل نبنيها بالطوب أمام منازلنا الأولى.. والله عيب كبير ما تفعلين، سيزيد من حقد أهل المدينة عليك.. أرجوك يا بنتي تزوجي بوزيد بن شواش هو طيب وسوف يحميك.

تم زواجي بالفعل من بوزيد بن الشواش، ودخل عليّ فعلا في تلك الغرفة التي كنت صاحبتها، لم نكن نتكلم كثيراً، ينهض في الصباح الباكر، يجمع بهائم سكان المدينة ويخرج بها إلى الروابي ثم لا يعود إلا آخر الليل.. كان هادئاً جداً، لم يعاندني يوماً، أجزم أن الرعاة هم أكثر الناس هدوءً، كان يجلس في مكانه ولا يبرحه أبداً، حتى حينما كان يباشرني ظل محافظاً على هدوئه من دون رعشة عاطفة، وكنت أحب بعض الضم العنيف والتقبيل الحارق، لكنه لم يفعل ذلك يوما، حبلت

منه وأنجبت ابنتي زهور، هدأت كل الأمور من حولي، حتى زوج والدتي طلب صفحي وقال لوالدتي أنه سعيد لزواجي، كان العبزوزي قد تحايل على والدي كي يتركني أبني بيتاً بقربه وأعيش فيه أنا وزوجي وابنتي، لكن بوزيد بن الشواش فاجأ كل حساباتنا وقال إنه سيعود إلى فاستن، لقد جمع مقدار عشرين نعجة من عمله في مدينتنا وهي تكفيه كي يعيش بالقرب من والدته وابنه عمه التي تنتظره منذ سنوات.

لم أكن لأستاء، فقط كنت حاملا في الشهر الثالث وعند ذلك الخبر أجهضت، طلقني بوزيد بن الشواش ورحل نحو مدينته».

[10]

أحضر لي الباشكاتب أوراق من دفتر الغنائم، صرت أعيد تدوين كل ما كتبه، تناديني الحروف، ترقص بين أصابعي، تتشكل عشقا جديدا.. أكتب الكلمة الواحدة ثم أتوقف لأتأملها، منذ قليل لم تكن!! صنعتها أنا.. شكلت انحناءها ولونها، لا يهم معناها.. أصبحت أنفق الوقت الكثير في الكتابة، أحتاج أوراقا كثيرة.. تشبه الحروف عيني العقونة.. صامتتان لكنها تتحدثان، ولكن ماذا تعني الغنائم؟

ـ الغنائم هي كل ما يعود به رياس البحر من رحلاتهم البحرية.. اقرئي هذه الورقة وستفهمين.

«غنمت سفينة الرايس بن زرمان وسنبك الرايس حميدو وسنك الرايس حسن سفينة نابولية محملة بالزيت في ١٨ من جمادى الثاني الموافق لـ٦ نوفمبر ١٨٠٠ ويقدر المنتوج بقيمة ٣٣٦٩١ فرنك و٨٠ سنتيماً»

ولا أفهم أيها الباشكاتب، كيف تكتب هذا. هل قمت بوزن كل هذا الزيت، كيف حسبت قيمته، أين ذهب الزيت؟

ـ لا أريد كتابة الأرقام والحسابات، حدثني عن أخبار الحاكم، متى العرس؟؟

ـ الثلاثاء القادم. . عرس النساء يوم الاثنين في الليل، هل حضرت نفسك؟

كيف أخبره أنني لا أريد الذهاب، لا أريد أن أتعرض لمواقف سخيفة، إنها العائلة الحاكمة لا يمكنني الدخول بينهم. . تذكرت نساء الحمام. . لا. . لا. . في النهاية أنا ضاوية القادمة من عزيز. . ضاوية التي كانت ترعى النعاج في روابي عزيز الواسعة، لا قدرة لي على مواجهة غنج الأميرات، يكفي أنني معك أيها الباشكاتب. . يكفي راحتي في صدرك. لم أجبه. . فتحت أوراقي وكتبت مرة أخرى:

«. . غنمت سفينة الرايس بن زرمان وسنبك الرايس حميدو وسنك الرايس حسن سفينة نابولية محملة بالزيت في ١٨ من جمادى الثاني الموافق لـ٦ نوفمبر ١٨٠٠ ويقدر المنتوج بقيمة ٣٣٦٩١ فرنك و٨٠ سنتيماً»

مسك عني الريشة وكتب:

«أجمل الأميرات أنت. . »

ـ لكنني لن أذهب. . مطلقا لن أذهب.

ـ أنت زوجة الباشكاتب. . سوف يسألونني عنك.

ـ أخاف عيونهم.

ـ هم الذين يخافون. . ضعي خيط الروح وارتدي القفطان الأزرق. .

ـ لا. . لا أريد حضور هذا العرس، أود أن أذهب إلى أمي في عزيز.

أود ارتداء خيط الروح، وقفطاني الأزرق. . سأنظف وجهي بماء الورد، وأضح كحلي وسواكي البرتقالي، تخرج زوجة الباشكاتب كي تقنعني بضرورة الذهاب، ضاوية. . أنت الآن في مصاف الأميرات، لمَ لا. . ولا أصدقها. . لا أريد الذهاب وهذا قراري الأخير.

جهز لي الباشكاتب من يرافقني في رحلتي إلى عزيز، اعتذر لي عن عدم تمكنه من مرافقتي بسبب عمله مع الحاكم، بعث برفقتي هدايا كثيرة. . بعض الحرير لأمي والحلقومة المزروعة جوزا وبندقا كي أوزعها على أهلي.

بدت لي الطريق سهلة جداً ومدينتي قريبة جداً، كيف يمكننا أن نستاء والعالم لا يزال يضم الباب العالي وتونس وفرنسا. . لم أتذمر لكني شعرت بشوق مبهم نحو إبراهيم. . لماذا أبالغ في التعلق به. . لقد أوصيت الباشكاتب بتفقده في غيابي فقال لي:

ـ يا ليتك كنت أوصيتني على ولدنا.

وماذا تعتقد؟ أنا في الطريق إلى عزيز من أجل هذا سأقول لأمي:

ـ لقد وجدت رجل حياتي أخيراً. . أرجوك فكي رباطي كي أنجب منه. . أرجوك.

عند مدخل المدينة أقبل نحوي أبناء سعدة الذين كانوا يحملون العصي، تقدما رجال الباشكاتب نحوهم، كانوا يصرخون:

ـ نريد العقونة. . لقد تبعتها، نريد العقونة

تظاهرت بالدهشة أمامهم. . أنزلت دموعاً ماكرة.

ـ تبعتني. . تقولون تبعتني. . . لكنني ذهبت لوحدي ووالدتكم لم تسمح برحيلها معي.

كنت في موضع قوة، بمجرد أن عرفوا أبناء سعدة أنني زوجة الباشكاتب، وهؤلاء من قصر الحاكم حتى صاروا خرفانا طائعين.

قررت النزول أولاً عند سعدة لأواسيها على هذا الخبر الذي قارب السنتين. . فوجدها وقد ذاب جبروتها تكرر في خبث.

ـ يا ليتني تركتها تذهب معك. . على الأقل كنت سأعرف أين هي؟

لم أسقط في مراوغتها المكشوفة، واصلت التظاهر بوجعي أمامها. . أجزلت لها بعض الهدايا فنست تماما العقونة. . تبحثون عن العقونة أيها الكاذبون. . تريدون الخادمة التي لا تتكلم ولا تتذمر. .

قصدت بيت والدتي بعد ذلك، طلبت من الرجال الذين أحضروني أن يظلوا هنا لأنني سأعود برفقتهم بعد ثلاثة أيام فقط، أعرف جيدا لماذا أنا هنا؟؟ سأفك الرباط وأعود.

هرع العبزوزي إلي بيت والدتي وعانقني طويلاً ثم قال لي:

ـ لقد دعوت لك في جبل عرفة. . طلبت من الله أن يسترك ويحفظك من كل شر.

كل الشوق الذي أتيت به من الدزاير إلى هنا هو ملك العبزوزي وحده، لا أحد يستحقه غيره، عانقته وبكيت، عرف الجميع أنني صرت زوجة الباشكاتب. صاروا يقومون على راحتي حتى تصورت أنني تزوجت حاكم البلاد. . لقد أحضر كبير مدينتي خروفاً مشوياً. . وأجزل بقية السكان اللبن والبيض لأمي حتى أنها لم تجد أين تضعه.

في الصباح الباكر طلبت منها الذهاب إلى تلك الأرض الزراعية كي

نفك الرباط. . قامت مسرعة، ركضنا مع خيوط الشمس الأولى كما أول مرة. . تغيرت أمور كثيرة بين الربط والفك، إنها نادمة جدا على فعلتها. . تقول لي:

ـ أخاف من ربي، يا ابنتي اغفري لي كنت خائفة عليك. . لم أتوقع أنك ستتزوجين الباشكاتب، لم أتوقع ذلك.

سألتها لأول مرة عن الوصفة. . من الذي أعطاها هذه الوصفة اللعينة.

ـ لقد أخبرتني بها عجوز يهودية من بوسعادة. . جاءت لترى قريبة لها في عزيز.

لا يهم ذلك الآن، المهم أن نفك الرباط وأتمكن من الإنجاب. . الباشكاتب يريد طفلا.

وصلنا إلى المكان المفترض، لكنها لم تهتدي إلى المكان الذي ردمت فيه الحفر. . صرت كالمجنونة أمامها.

ـ ربما هنا. . ربما هناك. . وربما عاودوا رسم حدود الأرض من جديد يفعلون ذلك عادة الورثة عند موت كبيرهم. .

لم أقنع بكلامها. . عليها أن تجد المكان، لابد أن تتصرف. . فكادت أن تنبش الأرض. . بعد وقت طويل سقطت على الأرض، تمرغت في التراب الذي صرت أحفره بوجع. .

ـ لا أريد أن تبكي. . لا أريد أنت سبب كل هذا، لابد أن تفكي رباطي.

صارت أمي ترتجف من صراخي، ثم قالت لي سنبحث عن بيت ذلك

الجبار الذي بسببه لا يزال مرفقي معوجاً. . كان بناؤه الحجري ظاهرا من بعيد فتبعتها صراخا.

ـ وماذا نفعل بالبيت. . هل سنطلب من الرجل الذي باغتنا قبل سنوات أن يرشدنا إلى المكان الذي كنت أتبول فيه.

هامت أمي على وجهها وحاولت العودة إلى الحقول استنادا إلى طريق البيت الحجري. . من دون فائدة. . عدنا أدراجنا خائبتين.

بقيت ذلك اليوم في عزيز على مضض. . وفي الصباح قدمت كيس نقود للعبزوزي وقلت له تصدق به على الفقراء وأطلب منهم أن يدعوا لي بالخير ثم أخذته على جنب وقلت له:

ـ أجزل كثير المال لوالد العقونة. . إنها عندي.

لم أودع أمي التي تحاشت رؤيتي هي الأخرى. بقيت طوال الطريق أفكر، كيف يمكن لهذا الرجل الذي لم يتزوج في حياته أن يصبر عليّ وأنا لا أستطيع منحه طفلا يوثق رباط المودة بيننا، ماذا يمكنني أن أفعل كي أفك هذا الرباط. .

تعجب الباشكاتب من عودتي السريعة، أوهمته أنني ما طقت بعاده. . وأن شوقه رافقني في رحلتي، صار يقبلني في كل مكان، أريد البقاء مع هذا الرجل الحنون. . إنه مختلف عن كل أزواجي، فيه من الحنان ما يكفيني ومن الرجولة ما يرضيني. . ماذا أفعل كي أحافظ عليه. .

أخبرني عن العرس، لقد فازت بقلب ابن الحاكم تلك الملطية، أخبرني أن العرس كان كما الأحلام لقد حضرت فرق موسيقية من كل أصقاع البلاد ولا يزال الحاكم يطعم ويستقبل التهاني. لم تعد تدهشني

أخبار الحاكم.. وحكايات رياس البحر، لم أعد أطالبه برسائل العرش.. كنت أريد فقط أن أحبل منه. أريد فك الرباط وفقط.

صار إبراهيم يتلفظ ببعض الكلمات يناديني بـ أوية وهو يحاول تقليد زهور التي تناديني أيضا باسمي ضاوية.. بدأت برفقة العقونة بجمع أغراضنا، سنرحل إلى بيتنا الجديد بتلاوملي.

بقينا كذلك أياما وعندما أنهينا، ذهبنا إلى الحمام، عرجت على العطار الذي سّر لرؤيتي ظنا منه أنني سأشتري كثير الأعشاب والعطور ثم أنهي طلباتي بقارورات المدام.

ـ مضى وقت طويل لم تزورينا فيه، سمعت أنك تزوجت البشكاتب؟

لاشك أن نسوة الحمام هن اللواتي أخبرنه فغيظهن كبير مني.. لكنني دخلت مباشرة في الموضوع.

ـ لست أحبل؟

فقهقه عاليا ثم أردف:

ـ على حسب علمي أنك تزوجت قبل هذا البشكاتب وحبلت مرات.. إذن لا عيب فيك.. عليه هو أن يعالج نفسه.

ـ لكنني أعتقد أنني مسحورة وبي رباط سحر.

ـ لست أفقه في ذلك.. قد أصنع حجاب حب، عين، عودة حبيب لكني في أمور السحر لست أنفع.. لماذا لا تتبركي بزيارة مزار سيدي عبد الرحمان.. هو قريب من بيتك؟

كنت أعرف مكان هذا المزار.. لقد قامت زينب بزيارته عندما

جاءت إلى هنا. . اشتريت شموعا وحناء من عنده وعزمت على زيارته في الحال.

نزعت نعلي ودخلت المكان وأنا أردد فاتحة الكتاب ثم أشعلت الشموع ودعوت الله حين تقربت مني امرأة جميلة قالت لي في هدوء:

ـ يفتح عليك ربي مِمَّ تشكين؟

استأنست ملامحها وقلت لها:

ـ أريد أن أحبل

ـ حالك من حالي. . أنا أيضا لست أحبل وقد مضى على زواجي ثمان سنوات

ـ وزوجك. ألم يتزوج عليك؟

ـ هو يحبني لكن سيأتي يوم ويقرر فيه ذلك، أنا أعلم.

رأفت لحالها. . فكرت بدوري في اليوم الذي سيتركني فيه الباشكاتب، خرجنا من المزار مع بعض بعد أن وضعنا الزيارة في يد القائم على المكان. . أخبرتني أن بيتها قريبا من زنقة الجنائز. . دعوتها أن تشرب القهوة معي. . فوافقت.

ـ لا ينتظرني شيء في البيت. . ليس عندي أطفال لأربيهم فقط ستنكد عليّ حماتي.

لاحظت أن البيت يستعد لرحيل ما، كما أنه يضم أطفالاً، الحمد لله لا أحد منهم يناديني ماما. . صحيح لقد هرع نحوي إبراهيم وتبعته زهور في خمول لكنهم نادوني جميعا بالضاوية.

أحضرت طبقاً من الفواكه وعسلاً كي نتسلى قبل أن تقوم عائشة بتحضير القهوة

نزعت عنها الحايك الذي أخفى مفاتنها، كم هي جميلة وخلوقة، بدت حزينة بسبب عقمها، تحدثنا طويلا. . أخبرتني عن عرس ابن الحاكم أيضا. . يبدو أن والدة العريس ستتخلص منها. . لقد أقرت بذلك لعدد من النسوة في يوم العرس.

ـ وماذا يمكنها أن تفعل؟

ـ لا أعلم. . نساء القصر يجدن حبك الدسائس. . قد تسممها.

ـ لهذا الحد.

ـ هذا هو الاحتمال الأرحم. . ربما تستأجر خادما ما وتطلب منه خنقها أو طعنها بالسكين.

ـ لا لا يمكنني أن أتخيل ذلك.

ـ إذا كنت أنا التي لا أسكن القصور تعرضت لمكيدة لا أزال أدفع ثمنها. . ما بلك بالسبية التي لا تريدها زوجة الحاكم.

ـ خير يا ربي. . ماذا حدث لك.

ـ في ليلة عرسي سرقت إحدى الغيورات بعض عجينة الحِنة التي بقيت في الوعاء المخصص لها، وقامت ببسطها على كامل راحة يديها. . لقد أخبرتني العرافة فيما بعد أن كل سلامية من سلاميات الأصابع تعادل سنة، وبالتالي لن أتمكن من الإنجاب طوال ثمان وعشرين سنة. . وهو عدد سلاميات الكف، يمكنك أن تقولي طوال عمري. . هل ستبقى المرأة صالحة للإنجاب طوال ثمان وعشرين سنة؟ يا ليتها مسحت على ثلاث سليمات أو حتى على عشر سلاميات، لقد يئست

وطال انتظاري. . قطعا سينتهي بي الأمر خادمة لدى زوجات إخوتي.

شجعني كلامها على البوح بسري، وعلى حكاية رحلتي الأخيرة بحثا عن الحد الزراعي من دون نتيجة. .

ـ إنه سحر عظيم.

ـ نعم لقد نقلته أمي عن يهودية

ـ لست أفهم ماذا كان قصد والدتك. . هل أرادت مساعدتك بذلك. . ماذا يعنيها لو صار عندك عشر أولاد ومن عشر رجال.

ـ في مدينتنا صعبة هي تربية الأطفال بالنسبة لأرملة أو مطلقة. . نعيش الفقر في عزيز.

شربنا القهوة ونسينا همومنا. . حددنا موعدا يوم الخميس القادم عند مزار سيدي عبد الرحمان، أعلمتها أنني قد أرحل بعد غد. . فقالت لي أنها ستأتي وتهنئني على البيت الجديد.

وأخيراً صار لي صديقة في هذه المدينة. . اسمها البتول وتقول أن سلالتها أندلسية، قدمت من غرناطة بعد سقوط الأندلس. . صرت أعرف أشياء كثيرة هنا. . يعيش في هذه المدينة كل الأجناس جنبا إلى جنب من دون خلاف. . غير أنا الباشكاتب يؤكد لي أن الخلاف كبير.

ـ تعبت يا ضاوية تعبت. . كان من الممكن أن تسمعي بخبر موتي اليوم، عند عصر اليوم كنت مع الداي مصطفى باشا في المسجد، بينما حاول جماعة من العصاة في قصر الجنينة

مبايعة داي جديد للبلاد، لقد سمع الحاكم بالمؤامرة وحاصرهم جميعا. . وأمر بإعدامهم جميعاً. . كانوا سبعة عشر شخصاً. . الكثير منهم كان في الصباح إلى جانبه. . يعمل تحت جناحه ويمتثل بأوامره.

ـ يبدو رجلا طيباً وورعاً. . لقد بنى المساجد وأجزل لي العطاء حين ضيقي. . لماذا يريدون أن ينقلبوا عليه؟

ـ اليهود. . كل البلاد تعرف أن الحاكم الحقيقي للبلاد هو اليهودي بوشناق. .

* * *

انتقلنا إلى البيت الجديد في تلاوملي. . شعرت وكأنني ضيعت الدزاير. . المكان هادئ جدا. . لا تقع عينيك إلا على الأشجار والنباتات الزهرية. . ضاعت لهفتي بالكامل. . أخاف الأماكن الكبيرة. . أخاف أقدارها الكبيرة، لم أقم بشيء. . صار هناك خدم كثر حتى العقونة لم تعد تقم بشيء. . ربما هذا هو الأمر الوحيد الذي سيريحني ويريح العقونة، ما عدا هذا. . باهتة جدا هذه العتبة. .

لا أزال أؤمن بالعتبات، خفت كثيرا على الباشكاتب من أمور القصر، لا يمكنني تصور حياتي من دونه. . عليه أن ينتبه لنفسه جيداً. . لماذا لا يترك القصر نهائيا.

تلهفت إلى مجيء يوم الخميس. . كي أذهب للقاء البتول عند مزار سيدي عبد الرحمان، لم نعد نقوم بشيء يا ضاوية. . انتهت حكاياتي القديمة. . تعرف عيناك كل شيء عني. . عيوننا تفهم كل شيء.

وجدتها أمام شمعتها.. تدعو الله أن يفك رباطها.. أشعلت شمعتي أمام شمعتها وهمست لها:

ـ يفتح رباطك إن شاء الله.

عانقتني وهي تردد أمين.. أمين.. خرجنا إلى جنان الضريح، أحضرت معها الفرش الذي تقوم على صنعه، حتى أراه قبل أن تأخذه العروس هذا المساء، كم كان جميلا..

ـ إنها الشبيكة[١] تخرج العيون لكنها جميلة كما ترين..

ذهلت للإتقان الذي حاكت به البتول هذا الفرش الأبيض الرائع، طلبت منها أن تصنع لي واحد مثله.. قلت لها مازحة.

ـ عله فرشك الجميل يفك رباطي.. أليس يفك الرباط من على فرش؟

ضحكنا طويلا، دخلنا في حكايات حميمية، قالت لي أن زوجها ثور جنس.. يشبع لذتها بالكامل. أخبرتها عن الباشكاتب، عن لمسات يده التي تخط انحناءات جسدي كما يخط الحروف، وفي غمرة حديثنا انتبهنا أننا قبالة ضريح سيدي عبد الرحمان فوضعت يدها على فمها..

ـ نسيت أن أخبرك أمرا هاما.. في الحقيقة أخبروني بوجود امرأة يهودية في القصبة الفوقانية يمكنها فك السحر، لكنني لم أتشجع على الذهاب، لو أنك تذهبين معي قد أفعلها.

ـ نعم، أذهب، ربما لن ينزع سحر اليهودية إلا يهودية مثلها.

---

(١) نوع من الطرز اليدوي.

ضحكنا طويلا بعد أن اتفقنا على الذهاب إليها يوم غد، كان الخادم ينتظرني أمام المزار.. ركبت البغل وودعتها.

قصص قصر الجنينة لا تنتهي مع الباشكاتب.. ظل يحدثني عن مساعدة الحاكم لليهود.

ـ لست أفهم لماذا يظل بوشناق قريبا من حاكم البلاد، لقد قدم له تنازلا بقطع شجر غابات القل، لو أنهم يقبضون على تجارة الخشب، ستموت هذه المدينة فكل شيء هنا يقوم على الخشب الذي تبني منه السفن، لا يزال في ذات سياسته.. لم يتعلم من المؤامرة الأخيرة.. سيحفر قبره بيده.. رياس البحر هذه المرة سيدخلون الصراع لاشك.

لم أعد أطالب بالشرح الكثير، كل تفكيري محصور في حكاية اليهودية التي ستفك سحري، أفقت في الصباح الباكر، حصرت حالي.. وضعت موزونتين ذهبيتين في تزدامي[١] قلت للباشكاتب أنني سأبقى مع البتول طوال النهار، كما طلبت منه أن يحاول التعرف إلى زوجها حتى يسمح لها هي أيضا بزيارتنا.. أخبرته أنه يسمى السعيد غرنوط ويعمل في دارصنا[٢] بباب الجزيرة.

في غرفة ضيقة جلس النسوة اللواتي قدمن من كل مكان في اكتظاظ، ثرثرتهن كانت أكثر اكتظاظا منهن، صارت البتول ترمق الوجوه بدهشة.. مختلفة جدا البتول عن هؤلاء.. يبدو أن الذهاب إلى هذه الأماكن

(١) محفظة النقود الصغيرة.

(٢) محرفة وهي دار الصناعة وهو المكان الذي كانت تصنع فيه السفن.

يتطلب الرفقة، صارت الأنفاس البشرية تخنقني، بدأنا نستمع لثرثرتهن وهن لا يفقهن حديثا غير ترديد قدرات هذه الساحرة الخارقة. . قالت إحداهن:

ـ إنها تتمكن من تجميد الماء، وجعله جليدا

ـ لقد جعلت من طليقها عاجزاً ليس يتمكن من الاقتراب من امرأة.

أما الثالثة فقد شعرت أنها مدسوسة حيث قالت:

ـ هذه اليهودية تريح من يمنحها الذهب، كما أنها تحب من يقدم لها العطايا قبل البدء في العلاج.

انغمست البتول داخل ثرثرتهن، كما شرحت بإسهاب سبب عمقها، طلبت من الحاضرات رفع أيديهم إلى السماء حتى يفك الله رباطها وكأن الدعاء سيستجاب هنا.

تخيلت أن دوري برفقة البتول لن يصل أبداً، صرنا نرتب الأدوار، عرفنا أن نصف الجالسات كنّ مرفقات، هذه جاءت مع ابنتيها وتلك ترافقها أمها وهذه مع صديقتها، وهكذا صار دوري قريباً.

دخلت برفقة البتول، سألتنا امرأة عند باب غرفة اليهودية

ـ من التي ستعالج. . لا يسمح بالمرافقة؟

فقلنا لها كلانا هنا من اجل العلاج، غير أنها طلبت منا الدخول واحدة فواحدة. وبينما نحن في جدال حول التي ستدخل أولاً سمعنا صوتا خشنا يقول:

ـ اتركيهما تدخلا. .

كان فتيل الشموع يراقص أثاث الغرفة، رائحة البخور تسد الأنوف، أما اليهودية فكانت امرأة شابة لا تتعدى الخامسة والثلاثين، ترتدي قفطانا أبيض، وتتزين كما نساء الجزائر تماماً تغطي رأسها بمحرمة الفتول أين يتدلى على جبينها خيط الروح، سارعت البتول وقبلت رأسها ثم جلست بقربها. . جلست بدوري بمحاذاة البتول، لم أشأ أن أقبل رأسها، وضعت في يدها موزونتين ذهبيتين وقلت لها:

ـ واحدة لي والأخرى لمرافقتي.

لاحظت ابتسامتها الماكرة وهي تسرع بالذهب إلى عبونها[١]

ـ من التي ستتكلم أولاً.

رأيت اليهودية شغف البتول واضحا في عينيها فأومت إليها، بدأت بسرد حكايتها وقالت.

ـ اسمي البتول بنت العكرية، متزوجة منذ ثمان سنوات ولست أ. . . . .

قاطعتها اليهودية صارخة:

ـ انتهى، توقفني

قامت بشد وعاء له يد طويلة كان موضوعا على الجمر قبل دخولنا، سكبت ما كان بداخله على أناء أخر جعلته أمامها مملوء بالماء فسمعنا انصهار تلك الفضة وصوتها الباكي فور وقوعها في الماء، انتظرت قليلاً وأخرجت ما تشكل من الفضة المذابة داخل الماء بيدها، رفعته قليلا وهو يقطر ثم أردفت:

---

(١) فتحة الثوب عند وسط الأثداء.

ـ أنت غرناطية مثلي، زوجك ليس يشكو من شيء، كنت أنت المقصودة بالسحر، جارة قديمة لزوجك قامت بذلك في الحناء ليلة عرسك.

ذهلت البتول لكل هذه التفاصيل، نظرنا إلى بعضنا البعض في عجب حتى واصلت:

ـ لا تقلقي سوف تنجبين هذا العام، عندما تذهبين لبيتك اشتري أوراق الحناء ثم اتركيها لضوء القمر عشرة أيام ثم اطحنيها واقسميها إلى نصفين، النصف الأول ابسطيه على يديك، وانتبهي لابد أن تبسطيه على كامل سلميات يديك لا تتركي ولا سلامية، والنصف الثاني ضعيه على شعرك، في الليلة الثانية أحضري بيضة وأغليها في الماء الذي غسلتي فيه شعرك من الحناء.. ثم انزعي شعرة من رأسك حاولي أن تقسميها بواسطة تلك الشعرة نصفين، تأكلين النصف وتقدمي النصف الثاني لزوجك.

انتابتني قشعريرة كبيرة وأنا أتابع وصفتها العجيبة، وضعت يدي على قلبي وخفت من وجهها الماكر فشعرت بضرورة الهرب من هنا، لكنني تذكرت وجه الباشكاتب الذي أريد بقاءه إلى جانبي.

عندما خرجنا من عندها، كانت البتول لا تزال على وقع الدهشة، قالت لي:

يا ليتني ذهبت إليها منذ زمن، يبدو أنها بارعة.

لم يكن حظي بحظ البتول حتى من السحر، لقد قالت لي:

ـ الحل الوحيد هو ردم تلك الحفر، ولست أتمكن من فعل شيء آخر لك.

قلت لها بانكسار بعد ردها الباهت:

ـ كيف ستكون حياتي، هل سأفقد زوجي؟

سكتت طويلاً ثم قالت:

ـ هناك صبي بقربك، ليس من صلبك، هو من سيرعاك وهو من سيدفنك.

لم تضف أكثر.. رغم إلحاحي الشديد، نادت خادمتها وأمرتها بإخراجنا لأن رأسها يؤلمها.

تعرف زوجي إلى السعيد غرنوط الذي سمح لزوجته بالبقاء معي ليلة كاملة أهملت فيها الباشكاتب، سهرنا حتى الصباح أخبرتني البتول أن حماتها أيضا أحضرت لها علاجا طبيعيا للإنجاب لقد كان قطنا يغمس في زيت الزيتون يحوى طحين أعشاب طبية وعليها أن تضعه كل ليلة في فرجها كي يتمكن من امتصاص البرد من رحمها، و أمام إصرار حماتها فقد التزمت بذلك الدواء الطبيعي كل ليلة.

بعد شهرين حبلت البتول، لسنا نعرف هل كان ذلك بسبب سحر اليهودية أم العلاج الطبيعي من أحضرته لها حماتها، قالت لي الدنيا مضحكة، ربما ليس لهذا السحر أساس من الصحة، وسبب حملي هو تلك الأعشاب الطبيعية.

فكرت في ذلك أيضاً، لكنني كنت أدرك أنا السحر الذي بي له أساس من الصحة وها هو يورطني البكاء كل ليلة على صدر رجل يعتقد أنه هو السبب:

ـ يا عزيزتي أنت ولود، السبب لا شك مني أنا.

جعلته يعتقد ذلك فعلاً، أنا بحاجته إلى جانبي، لست أتخيل فراقه عني، لم أكن أعرف أني سأحبه كل هذا الحب.

مرت الأيام في صمت رهيب، لم تعد تلك الحبلى تزورني، تقول إنها تخاف على حملها ولا تقوم بشيء كي لا يصيبها مكروه من حقها ذلك، لقد عانت من دون أطفال طويلاً.

الباشكاتب أيضا، صار يريد أن يتداوى، هو دائم التفكير بالأطفال ولطالما وجدته يحمل إبراهيم ويلعب معه، صار إبراهيم بهجتنا في هذا المنزل بعد أن كبرت زهور قليلا.

تلاوملي قطعة من الجنة. . البحر هنا كما سذاجتي الأولى نصف السماء. . العلو أخضر اللون، والبيوت البيضاء متناثرة كما رقة زهور متخفية، أقضي معظم الوقت في الجنان، العقونة أيضا، إبراهيم يركض طويلاً ولا يتوقف عن اللعب.

ـ هناك صبي بقربك.

ترى هل هو قصد اليهودية في فراستها تلك؟

لا أريد أن أفكر في هذا، الأمر يبدو كما شرفة لست ترى منها شيئا، تطل عليك ولا تطل منها على شيء. .

عندما أفكر بالذي كان أشعر وكأن الأشياء وقعت منذ مليون سنة، كل ما حدث كان نبضه متتاليا وكثيفا، لم أجمع شتاتي ولو لمرة واحدة.

[11]

أربع سنوات هنا في تلاوملي. .

يكبر الصغار وتكبر الحكايات من حولنا، وأنا والعقونة نتكلم، أتحدث إليها وتجاوبني:

ـ لا يزال يعتقد أنه هو العقيم، إنني أخدعه يا عائشة.

ـ لا. . أنت لا تخدعين أحدا، يأخذ منك حبك واهتمامك.

ـ أحبه. . وأخاف أن يرحل.

ـ لماذا يرحل، لو أنه يريد ذلك لقام بذلك منذ زمن، أنظري إلى وجهك أنت قمر يا الضاوية.

تشتتت عاداتي في تلاوملي، لا أقوم بشيء، الصيف خانق، والبحر بعيد، النوارس لا تصل هنا إلا نادراً، علمني الباشكاتب نسخ الكتب، أخبرني أنها مهنة أجداده وأنه يتوق للعودة إليها، لقد سئم هو أيضا العمل في القصر، الأمور ليست على ما يرام، والحاكم يتورط مع بوشناق أكثر. .

قال لي العطار في أخر مرة اشتريت فيها الحناء والصابون وعطر الياسمين أن الحاكم الحقيقي في هذا البلد هو بوشناق وليس مصطفى

باشا، ما عادت تلعب بمخيلتي حكايا القصر، سئمت كل هذا، الجميع يلوم مصطفى باشا، لا أحد يقدم له الولاء، حتى زوجي يفكر في الرحيل نهائيا من هنا. .

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

ـ إلى تركيا. . سأعود إلى نسخ الكتب. . كما فعل جميع أفراد عائلتي. . نحن يا ضاوية أبناء الحروف والحبر الذي صار كالوشم على الإبهام والخنصر. . عليّ أن أعود بسرعة. . أشعر بالاختناق هنا. . أحس بحبل يطوق رقبتي، تعبت كثيراً كثيرا لو تعلمين.

أنا مستعدة للذهاب إلى البعيد، للركض المطلق في هذه الأرض تماما مثل أبي الذي تركني وهام في الصحراء. . عبادة جيدة هو الضياع، حيث الوجهات كلها روحك وفقط.

عاد إبراهيم من الكُتاب يحمل لوحه، يردد الآيات التي يحفظها بإيقاع مغربي جميل، هو ذكي ويجيد التواصل مع أمه جيداً، لا يتحدث معها بالكلمات مثلنا، وإنما ينظر إليها فقط فتفهم منه كل شيء.

لا أزال أتساءل كيف يمكن لهذا الصبي أن يدفنني؟؟ هل يعني ذلك أنه الرجل الوحيد الذي سيبقى معي. . والباشكاتب. . هل سيرحل. . ؟؟

زهور أزهرت نهدين صغيرين، تشعر بالخجل طوال الوقت، علمتها الكتابة والقراءة بشق الأنفس، هي لا تجد في خاطرها صبرا لذلك، صارت لها صديقة تدعى نرجس تزورها كل يوم برفقة القويترة التي لا تفارقها. . نرجس تكبر صبيتي بسنتين لكنها بقوام صبية كاملة جميلة وذكية. . ولها صوت جميل أيضاً.

عندما أتابع حركاتها أشعر وكان ابنتي زهور ساذجة ومخبولة.. نرجس تفوقها في كل شيء.. في تسريحة شعرها وفي كيفية ربط المحرمة.. في حركاتها وفي كلامها.. حتى في طريقة مسك غيهب الفنجان.. تعجبني صداقتهما.. على الأقل ستتعلم منها أموراً كثيرة.. غير أن صغيرتي تريد أن تتعلم العزف على القويترة..

وعلى الفور طلبت من الباشكاتب شراء قويترة للصغيرة، هذا مهم جداً.. بل أمر في غاية الأهمية..

ـ يا صغيرتي عندما كنت في عمرك.. كنت لا أعرف غير النعاج وعلفها.

ضحك الباشكاتب من الطلب ثم قال:

ـ قد أشارك في تعليم صغيرتك.. من يدري..

عندما قال لي الباشكاتب هذا.. لم أتوقع أنه يقصد ما يقول.. وانه بالفعل يجيد العزف على العود وعلى هذه القويترة الصغيرة.. وكذلك الغناء..

في ذلك اليوم دخل الباشكاتب باكراً على غير عادته.. لم نشعر بدخوله ونحن منغمسين في وصلة غنائية تضبط إيقاعها نرجس والصغيرة زهور ترد الكلمات عليها.. حتى أقبل نحو زهور التي نزع منها القويترة وقابل إلى نرجس، يعزف ويغني ذات الأغنية.

وعلى شحوب العشية — نعمل مع الخل رونق
صفراء صفراء مذهبية — نشرب ونغني ونعشق
ويكون حبي بين يديا — نسقيه من الكاس الأزرق

نـهـنـا ويـفـرح قـلـيـبـي　　ونـقـول تـالله مـا عـلـيـا
الـيـوم عـلـى غـيـظ رقـيـبـي　　نعمل حضرة في ذي العشية

طلبت من عائشة تحضير قهوة ومقروط، الباشكاتب في مزاجه ولا شك أن سهرتي معه الليلة ستكون رائقة.. سحرنا جو الغناء والموسيقى، تحركت في داخلي رغبة ما في احتضان قويترة أو عود.. لكنني أعدلت عن رغبتي.. الحروف أقرب إلى خاطري.. سنرحل إلى تركيا.. سنرحل وسأنسخ الكتب إلى جانب الباشكاتب.. هذا كل ما أطمح إليه.. سيما وأنني أعرف أن الباشكاتب يريد ذلك من كل قلبه.

غادرت نرجس وهي مذهولة من طريقة عزف الباشكاتب، قالت لزهور:

ـ لو قرر زوج والدتك تعليمك العزف.. بالله عليك اسمحي لي بالجلوس أرضاً بينكما..

لكن الباشكاتب تركنا ودس جسمه في فراشه، سارعت إليه.. علنيّ كنت مخطئة عندما اعتقدت أنه بمزاج رائق.

ـ يا حبيبي.. مابك..

ـ تعالى واستلقي إلى جانبي..

طوقني وجعل ظهري في صدره ومؤخرتي في خاصرته، ظل يداعب ثدييّ ثم ثبت يديه على بطني، كنت بالكامل لؤلؤة وهو محارتي التي تحتضنني حد الابتلاع.

ـ كل هذا العمر ولا تغني لي.. كيف تمكنت من كتم هذا السر.

ـ ربما لم أعزف منذ خمس عشرة سنة أو أكثر. . تعلمت ذلك من أمي في طفولتي، غير أن الحروف سرقتني من النوبات. . والحقيقة أنني أفضل الكتابة. . الحروف معزوفات أيضا، إيقاع يطرب الروح. .

ـ أنا أيضا أحب الحروف. .

ـ يبدو أن الحروف هي التي ستنقذنا، أريد مساعدتك يا ضاوية، علينا ترتيب السفر إلى اسطنبول سريعا. . سريعا. . لا شيء هنا ينبئ بالخير. . أنا لا أقوم بشيء. . اليهودي بوشناق صار هو الواقف على دفتر الغنائم وعلى المراسلات مع فرنسا. . أنا لا أفعل شيئا حتى مراسلات الباب العالي صار يتدخل فيها. . لم يعد لي لزوم في ذلك المكان. . وكما ترين عدت باكراً هذا اليوم. . وربما لن أعود مرة أخرى إلى القصر. . الحاكم هو بوشناق وقد يقرر الاستغناء عني وعن خطي الجميل.

ـ وما العمل. . ؟؟

ـ لا أعرف. . أشعر بضيق شديد، رأسي يؤلمني ولا قدرة لي على التفكير وإيجاد الحلول. .

ـ لنذهب إلى تركيا. . لنذهب من دون أن تخبر الحاكم. . قدم بعض الهدايا لرياس البحر وسيتركوننا نركب السفينة المتوجهة إلى اسطنبول من دون أن يخبروا أحداً.

مرة أخرى أجمع أشيائي، لا أعرف كيف أخبر عائشة ولكنني طلبت

منها جمع بعض أغراضها، المسكينة ترضخ دوما، أما زهور فأهدرت دموعا ساخنة.

ـ لا أريد الرحيل يا أمي. . هنا عندي صديقة.

ضممتها إلى صدري وصرت أمسح على جبينها.

ـ يا صغيرتي، هناك أيضا سيصبح لديك أصدقاء، اسطنبول مدينة كبيرة أكبر من الدزاير، ستتعلمين العزف، أنت لا تعرفين كم يعشقون العزف والغناء هناك. .

فجأة صار موعدنا الفجر، سنذهب إلى ميناء الدزاير، الباشكاتب متوتر أكثر مني، الرجال لا يجمعون الأغراض، ولا تقلقهم فناجين القهوة التي لا أتمكن من ضمها إلى حمولة الرحيل. . أخبرني أنه سيضع جنان تلاوملي ومنزلي في زنقة الجنائز تحت حماية قاضي المدينة ولابد أن يذهب إليه في مسجد بتشين عند صلاة العشاء.

لم تكن الشمس قد رحلت بعد، عندما باغتتني رغبة وداع الجنان. . الوقت صيف وكرمة العنب تقارب النضوج. . بعض العناقيد العالية تبدو ناضجة. . من الذي توقع أننا سنذهب ولا نتذوق من ثمرها هذا العام. . أمر جانبي ربما، وليس بمستوى اهتمامات الباشكاتب. . لكنه يأكل من رأسي وأريد الوصول إلى تلك العناقيد العالية وتذوق ثمرها قبل رحيلي. . أريد ذلك. . هذه الكروم كانت صديقتي. . لطالما تابعت نموها وربطت أغصانها الغضة إلى سقف القصب المصطف حتى لا تتهاوى إلى الأسفل، وأكثر. . هذه الكروم كانت سقف رؤيتي. . ولا يمكنني أن أحدد أكثر، هل كانت سقف رؤيتي العينية أم سقف رؤية الذكريات والأحلام. .

أحضرت السلم وبدأت بقطف العناقيد الناضجة، لم تكن ناضجة بالشكل الكافي ولكنها بالحموضة المعتدلة. .

وضعت العناقيد المغسولة بالماء البارد على صينية أعرف أنها لن تتبعني وجلست أرضا. .

ـ مجنونة أنت. . مجنونة. . لا تخافي هناك عنب في اسطنبول. . هناك أحلى عنب في الدنيا

قبلني الباشكاتب على جبيني بعدما تذوق برفقتي بعض العنب الحامض. . قال لي أنه ذاهب إلى صلاة العشاء. . سيتأخر قليلا، وعليّ أن لا أقلق عليه. . كما حذرني من كثرة الأغراض. .

ـ لسنا مسافرين. . وإنما هاربين من حكم بوشناق.

* * *

صفق الخادم الباب تذمراً. . خدم أخر زمان.

منذ البداية لا يعاملني كسيدة عليه، ربما كان ذلك بسببي، أنا التي جعلته يجلس معي ويحتسي فنجان قهوته إلى جانبي، بل وأضع له الطعام في غرفته، طبعا أنا راعية كيف لي أن أعرف كيف يتعامل الأسياد مع الخدم، ها هو الآن يتذمر لأنني طلبت منه النزول إلى القصبة والذهاب إلى مسجد بتشين والسؤال عن سيده. . . لقد تأخر كثيراً. . نحن على مقربة من الفجر، والفجر موعد رحيلنا. .

ماذا يفعل كل هذا الوقت؟؟ أخبرني أنه سيتأخر، لكن ليس بهذا الشكل، لقد جمعت كل شيء. . أحضرت لوازم الرحيل، حاولت التنازل عن أشياء كثيرة، حاولت الهروب منها، وعدم النظر إليها، لأنني لو نظرت إليها سأحدق فيها وأقرأ فيها الرجاء. .

تراه ماذا يفعل؟؟ هل يستغرق الحديث مع القاضي كل هذا الوقت؟ عله ذهب معه إلى بيتي في زنقة الجنايز، القاضي لا يعرف بيتي، وربما ذهب إلى رياس البحر وقدم لهم المال، قد يستغرق هذا الأمر الوقت الطويل، سيقول لهم:

ـ أريد الذهاب إلى اسطنبول.. الحاكم في هذه البلاد هو بوشناق وليس مصطفى باشا.

يعرفون ذلك لا شك، رياس البحر كانوا قبل سنوات وراء خطة لإسقاط حكمه، ولكن قد يشكون في نوايا الباشكاتب، قد يكون بينهم دسيس يعمل لصالح بوشناق، عله سارع في إخباره، فاعتبر الحاكم ذلك خيانة من طرف الباشكاتب وأمر في إعدامه.

رجتني فكرة الإعدام، يا رب لم يبق بيننا وبين الرحيل سوى ساعات، يا رب يعود بسلام ولن نبقى هنا.. لن نبقى هنا.

الوقت في هذه اللحظات سلحفاة تقطع بروية شتات خيالي الذي يصير موهوباً أكثر كلما وقعت على رأسي مصيبة، أجلس عند مدخل الباب الخارجي بعض الوقت، ثم أفتحه.. كلما قطعني الوقت قطعت خطوتين.. أنا الآن على قارعة الطريق.. انتظر عودة الباشكاتب أو ذلك الخادم المتذمر.

لمحت خيالات كثيرة لم تكن للباشكاتب ولا حتى للخادم، كان قلبي يخفق عند كل خيال سيما وأنا أسارع إلى دخول البيت كلما اقترب الخيال وتبين أنه ليس من أنتظر..

أحاول هذه المرة التحقق من الخيال، إنه الخادم لا شك.. ،

ـ يا سيدتي لم أتمكن من الوصول إلى المسجد ولا إلى بيت القاضي، رجال الحاكم في كل مكان، لقد قتل أحد اليولداش اليهودي بوشناق مساء يوم أمس وأهالي القصبة يطاردون اليهود ويقتلونهم. . لا يمكنني على الإطلاق الدخول إلى القصبة. . جميع أبوابها موصدة.

* * *

الصباح الذي انتظر يجعلني أفكر في حكاياتي البعيدة. . لا أزال أشبه قدري، أشبه هذا الحزن الواقف عند مدخل الباب، لقد صارت روحي ضعيفة ولا طاقة لها على مجابهة كل هذا. . تذكرت مواجعي القديمة، عندما سرقني كتونيوس، تعاد الأشياء بذات الحرقة. . لقد تعبت. . تعبت.

القصبة من جديد. .

وصلنا إلى باب عزون، عدد كبير من التجار والوافدين واقفون عند مدخل الباب، ولا أحد يتمكن من الدخول.

ـ تلك أوامر الجنود. .

بقيت هناك ألتقط عددا كبيراً من الأحاديث. . أحاول ترتيبها لكنها تأتيني دفعة واحدة.

ـ يحي نفطالي بطل. . يحي نفطالي قتل ملك الجزائر. . ذلك اليولداش الشجاع.

ـ القصبة الآن بركة من الدماء. .

ـ لقد نهبوا كل مخازن اليهود،

ـ ماذا سيفعل الحاكم مصطفى باشا؟؟ هل سيقتل.؟؟

ـ أريد الدخول.. أريد أن أرفع يحي النفطالي فوق رأسي، لقد خلصنا من المجاعة.. اليهود سلبوا قمحنا وخشبنا، وباعوه لفرنسا.

شعرت بالغثيان وهذه الأصوات تصلني حادة ومتتابعة، غسلت وجهي عند العين المحاذية لمدخل باب عزون وابتعدت قليلاً عند ناحية الظل، أما الجموع فلا تزال تسرد وقائع الحادثة، ويهتفون باسم يحي نفطالي اليولداش الذي خلصهم من اليهودي بوشناق، يقولون إنه ترصده عندما كاد يهم بالخروج من قصر الجنينة.. رفع سلاحه وهتف قائلاً:

ـ يعيش داي الجزائر

ثم أطلق عليه النار فجعله جثة هامدة، أسرع حراس القصر حاملين سيوفهم فقال لهم اليولداش يحي نفطالي:

ـ ما بكم أنا قتلت يهوديا، فهل أنتم كلاب اليهودي؟؟

عندئذ فتح له الحراس الطريق، وحملوه على الأكتاف وفي طريقهم إلى الثكنة راح الناس يقبلون اليد التي أنقذتهم من ظلم اليهودي.. وفي غمرة هذه الأحداث أرسل الحاكم مصطفى باشا سبحته إلى الجنود دلالة على إصدار العفو على اليولداش يحي نفطالي، لكن الخبر انتشر في المدينة فحدث ما حدث وصار الأهالي يهاجمون مخازن بوشناق وبكري.

* * *

عند منتصف النهار عدت إلى البيت، لا يمكنني مقاومة أشعة الشمس

الحارقة وسط الجموع التي تتطلع لمعرفة أخبار القصبة، الغثيان يكاد يسقطني أرضاً. . ولا أعرف لماذا يعاندني جسدي في مثل هذه الأوقات، ويضيف لي كل هذا، كافية جداً أوجاع الروح.

عاد الخادم بعد أن وصلنا إلى البيت أين ساندتني عائشة وسارعت إلى غسل وجهي بالماء البارد، طلبت من الخادم محاولة الدخول من باب الدزيرة أو باب جديد، قد لا تكون الحراسة هناك كما في باب عزون. . لكنه عاد أخر النهار من دون أخبار. .

لا أعرف كيف مرت على رأسي ليلتان وأنا أرسل الخادم كل صباح إلى القصبة ولا يعود بخبر واحد عن الباشكاتب، أين هو الآن؟؟ يا رب. . الأخبار تقول إن القتلى يملؤون رحبة السوق، و الجنودَ الإنكشاريين قرروا انتخاب حجة الخيل أحمد بك دايا على الجزائر، الحاكم مصطفى باشا يستجدي عطفهم ويمنح كل ماله مقابل السماح له بالرحيل إلى اسطنبول. . لكنهم يرفضون ويتوعدونه بالإعدام. .

ماذا سأفعل الآن؟ هل سأقضي ليلة أخرى وأنا أطارد الخيالات من أمام مدخل الباب الخارجي. . كل شيء من حولي حامض كطعم العنب الذي كان أخر ما تذوقت. . أتألم جوعاً ولا أستسيغ شيئا سوى الماء.

تجعل لي عائشة لحافاً عند مدخل المنزل. . أتوسد ترقبي وبالقرب مني إناء ماء بارد أضع فيه يدي اليسرى كلما شعرت بالغثيان. .

هل عاد الباشكاتب؟؟

هل عاد الخادم. .؟؟

الغثيان ينهشني ولا أحد يدفع الباب الخارجي ويدخل. .

[إسعاف روائي]

أهلا بكم . .

أنا هاجر . . في الحقيقة لقد هزمتني الضاوية، وما عادت تستجيب لخيوط حبكتي . . هي الآن منذ أكثر من سنة على هذا الحال . . أمام مدخل الباب الخارجي تنتظر الباشكاتب . . لا تزال يدها اليسرى في وعاء الماء البارد وطعم حلقها بحموضة عنب لم ينضج جيداً .

لقد حاولت معها طويلاً . . ولم أتمكن من النيل منها وحملها إلى بقية الأحداث . . أخبرتها مراراً أنني أعرف مكان الباشكاتب وأن الغثيان الذي تشعر به هو في الحقيقة من أعراض الحمل . .

يا ضاوية . . من سيدفنك هو إبراهيم ابنك وليس ابن العقونة . .

لكنها لم تأبه بحديثي . . وظلت أمام المدخل الخارجي لمنزل تلاوملي . . تنتظر الباشكاتب . .

هل يمكن أن ترفض الكائنات الورقية مسار حبكتها؟؟ هل تشعر الضاوية بالظلم؟؟ هل ظلمتها؟؟ هل ألقيت على كاهلها كل هموم الدنيا؟ أم إنها كانت تدرك أن قسوتي ستطال الباشكاتب . . ؟؟

سأحاول ترتيب نهاية الرواية لكم . . فأنا منذ عام أدرك أنها رواية غير

مكتملة. . وأن عناد الضاوية سيظل أمام مدخل الباب الخارجي لجنان تلاوملي.

تقول الحكاية أن الخادم سيعود إلى الضاوية حاملا معه خبر مقتل حاكم البلاد مصطفى باشا. . فتحزن الضاوية لأجله كثيراً. . لقد عرفته حاكما كريما وبسببه وجدت حب حياتها، وفي نفس الليلة يعود الباشكاتب ملثماً يخبرها بمقتل الخزناجي مصطفى القزدرلي أيضا. .

كان الباشكاتب يرتعد من الخوف. . وعند الفجر خرج الجميع من دون أية حمولة سفر متوجهين إلى ميناء الدزاير.

وعلى مقربة من الميناء ترصد لهم بعض الجنود وقاموا بذبح الباشكاتب من الوريد إلى الوريد أمام عيون الضاوية.

حتما ستضحكون عليّ. . أمام هذه المأساة ستفضل بالتأكيد البطلة البقاء في حالة غثيان أمام مدخل الباب الخارجي لجنان تلاوملي ولا ترى عيناها هذه البشاعة. .

فكرت أيضا في حملها بعد ذلك إلى منزلها القديم في زنقة الجنايز. . أين ستضع مولودها على يد الطاوس مرة أخرى. .

لقد وعدت نفسي بحمل الرضيع إلى أخ الطاوس ذلك المخبول الذي كان يقول:

ـ ذهبت تحضر طفلا. . لم أعد أستطيع حساب أطفالها، كل نوى هذا المشمس أطفالها. . في كل مرة تقول لي سأحضر لك طفلاً يلعب معك. . وها أنا ألعب وحدي. . لا تصدقوها. . الطاوس لا تحضر الأطفال معها. . هي ترمي بهم للبحر. .

ربما سننتهض الضاوية يوما ما . . سأجعلها تصعد إلى سطح بيتها في القصبة ومن على المنزه تتابع أسراب النوارس وتتنفس الهواء الذي راقصته أجنحتها . .

مثير كل هذا أصدقائي . . نحن نحلم بأشياء كثيرة في حياتنا ولأنها لا تتحقق ننساها وننسج غيرها . . وكأنما الحكمة من ذلك هي نسج الأحلام وليس تحقيقها . .

لا أعرف إن كنت نجحتُ في هذا الضماد لرواية مجروحة، أم إنني فتحت جروحها أكثر لديكم . . فليسامحني الله . . ولتسامحني الضاوية .

هاجر قويدري بوسجور . . أوت ٢٠١١

هذا الكتاب

وقفت إلى جانب أمي، كان المكان غارقاً في رائحة البهائم التي يبدو أنها الصّاحي الوحيد، اقتربت مني دجاجة ونقرت خفيَّ الموحل، نهرتها لكنها عادت مرة أُخرى، كنت أفكر في زهور، لقد تركتها نائمة، لا شك أنها تبكي الآن، شعرت بدوار مباغت وأنا أنصت للقطرات المتلاحقة من كل جهة.. دمعي ودمي ودقات هذا القلب المقبوض.

ـ هيا تقدما.

دخلنا الباب بانحناء قصري، إنه بطول انكماش خائف، كأنما يتوجّب على الداخل أن يقدّم التحية للعتبة أولاً، تقدمت نحونا عجوز مسنّة، رحّبت بنا بصدق وألحّت على ضرورة شرب القهوة؛ حتى يتمكن الجبار من تجهيز أدوات علاجه.

